محمـــد عبـــده
وأثره
فى الفكر الإسلامى المعاصر

د منى إبراهيم إسماعيل أبو شادى
العقيدة والفلسف- كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بالإسكندرية - جامعة الأزهر

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستغفره ونتوب إليه ونتوكل عليه. والصـــلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد صلوات ربـــى وســـلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعـــد

فمن خلال هذا البحث(*) نلقى الضوء على فكر وآراء الإمام محمـــد عبـــده وأثره فى الفكر الإسلامى المعاصر وذلك لما له من شخصية فذة وباع طويل فـــى مجالات عدة إذ لم يكن مصلحا دينيا فحسب بل مصلحا لغويا واجتماعيا وسياســـيا. ليس هذا فقط بل كان مجددا نابذا التقليد الأعمى داعيا إلى الاجتهاد وإعمال العقـــل فلم يكن منغلقا على فكر معين بل داعيا وحاثا إلى الانفتاح على الثقافات الأجنبيـــة مع المحافظة على الهوية الإسلامية العربية. والناظر فى آرائه يشعر بالصدق مـــن جانب الإمام ورغبته الأكيدة فى إصلاح أحوال المسلمين والعرب.

من هنا نستطيع أن نقول: إنه كان بحق سابقا لعصـــره ورائـــدا مـــن رواد

(*) ألقى هذا البحث فى المؤتمر السنوى للجمعية الفلسفية المصريـــة المنعقـــد تحـــت عنوان: "الفلسفة وتاريخ العلوم فى مصر فى مائة عام" سنة ١٩٩٩

obeikandl.com

التنوير. يضاف إلى هذا وذاك أنه كان غيورا على الإسلام جادا فى الدفاع عنه إذا مسه أحد بسوء ويتجلى هذا واضحا من خلال ثلاثة مواقف:

الأول: رده على هانوتو(**) فى أوائل عام ١٩٠٠م الذى ادعى أن الإسلام احتوى على عقيدتين أساسيتين هما: عقيدة التوحيد وعقيدة الجبر وعزى إليهما الانحطاط الذى آل إليه العالم الإسلامى، ولذلك قال الإمام محمد عبده: "ولو لم يتعرض مسيو هانوتو إلى الطعن فى أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار- حظ الناظر فى أحوال الأمم وأعمال رجالها- حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم، ويفهم ليعلم ويحكم. ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب. أما ما جاء فى حديثه عن أصول الدين فهو الذى أقصده بما أكتب اليوم"(١).

الثانى: رده على فرح أنطون(*) الذى نشر مقالا فى مجلة الجامعة عن ابن رشد قرر فيه أن المسيحية كانت أوسع صدرا وأكثر تسامحا مع العلم والفلسفة من الإسلام. وتولى الإمام محمد عبده الرد على هذا فى عدة مقالات أثبت فيها سعة صدر المسلمين للفلاسفة وأهل العلم والأديان الأخرى. مما لم يكن له نظير فى أى دين آخر(٢).

(**) هانوتو كان وزير خارجية فرنسا فى التاريخ المذكور.

(١) الإسلام دين العلم والمدنية ص ٨٤ دراسة الدكتور عاطف العراقى.

(*) فرح أنطون كاتب وباحث وصحفى وروائى ولد فى طرابلس الشام عام ١٨٧٤م. انتقل إلى الإسكندرية عام ١٨٩٧م وأصدر مجلة" الجامعة" وتولى تحرير" صدى الأهرام" ستة أشهر. وأنشأ لشقيقته روز أنطون مجلة" السيدات" وكان يكتب فيها بتواقيع مستعارة. ورحل إلى أمريكا عام ١٩٠٧م فأصدر مجلة وجريدة باسم"الجامعة" ثم حجبهما وعاد إلى مصر فشارك فى تحرير بضع جرائد، وكتب عدة روايات تمثيلية وعاود إصدار مجلته فاستمر إلى أن توفى بالقاهرة عام ١٩٢٢م. من آثاره"مجلة الجامعة " و"فلسفة ابن رشد" و"تاريخ المسيح " وغيرها. كان عزيز النفس لين الطبع جلدا على العمل راضيا بالكفاف. قاوم النزعات الاستعمارية، وكانت له فى خدمة النهضة المصرية يد.
انظر: الأعلام للزركلى ٣٤١/٥ .

(٢) انظر: زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ٣٦٠ .

الثالث: رده على رينان(**) الذى ادعى أن الإسلام عاجز عن التطور، وعن قبول أى مظهر من مظاهر المدنية والتقدم.

هذا ولقد كانت حياة الإمام ترجمة عملية لآرائه، وسوف يتضح ذلك من خلال تسليط الضوء على أهم أفكاره وآرائه التى كان لها تأثيرها الذى لا ينكر فى الفكر الإسلامى والحياة العقلية المعاصرة.

وقد عقدت هذا البحث للحديث عن النقاط الآتية:

أولا: نشأته ومؤلفاته.
ثانيا: مكانة العقل عند الإمام محمد عبده.
ثالثا: موقف الإمام محمد عبده من التأويل.
رابعا: دور الإمام محمد عبده فى توضيح قضايا الإسلام والرد على أعداء الإسلام الذين طعنوا فيه وبخاصة المستشرقين ومن جرى فى ركابهم.
خامسا: آثار الإمام محمد عبده فى الفكر الإسلامى المعاصر.

نشأتـــه :

ولد الإمام محمد عبده خير الدين المصرى فى إحدى قرى محافظة الغربية بمصر وهى "حصة شبشير" فى عام ١٢٦٦هـ-١٨٤٩م. لكنه نشأ وترعرع

(**) رينان أرنست ولد عام ١٨٢٣م وتوفى عام ١٨٩٢م مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسى أتم دراسته فى باريس واهتم بالدين من الناحية التاريخية لا من ناحية العقيدة. كتب "تاريخ نشأة المسيحية" و"تاريخ شعب إسرائيل" انتخب عضوا بالأكاديمية الفرنسية ثم مديرا للكوليج دى فرانس. ألف فى أسلوب أدبى ساخر"محاورات وشذرات فلسفية " وكتب"ذكريات الطفولة والشباب " فى نثر فنى جميل ممزوج بسخرية دقيقة. وكان رينان من أوائل المستشرقين. ألف رسالة عن"ابن رشد والرشدية " ترجمت إلى العربية أنكر فيها على المسلمين فلسفتهم زاعما أنها فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية، وذلك على أساس تفرقته الباطلة بين الجنس الآرى الذى يمتاز بملكة الخلق والإبداع وبين الجنس السامى الذى تنعدم فيه هذه الملكة.
انظر: الموسوعة العربية الميسرة ص٩١٣ إشراف محمد شفيق غربال.

بقرية"محلة نصر" من قرى شبراخيت بمحافظة البحيرة. فى بيت يوصف أهله بكريم الأخلاق وحميد الصفات.

حفظ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة فى منزل والده. وعندما بلغ الفتى الخامسة عشرة من عمره أرسله والده إلى المسجد الأحمدى بطنطا ليجود القرآن الكريم وذلك نظرا لشهرة قرائه فى التجويد.

وفى عام ١٢٨١هـ قضى فى المسجد الأحمدى حوالى سنة يتلقى فيها شرح الكفراوى على الأجرومية غير أنه لم يفهم شيئا منها لرداءة أسلوب التدريس، خاصة وأن المدرسين كانوا يستخدمون اصطلاحات فقهية يعجز الطلاب عن فهم كنهها وحقيقتها.

وقد دفعه هذا إلى الهروب من الدرس والذهاب إلى أخوال أبيه. وبعد حوالى ثلاثة أشهر عثر عليه أخوه وحاول إرغامه على طلب العلم بالمسجد الأحمدى، إلا أنه أبى وأصر على الرجوع إلى قريته ليشتغل مع إخوته بالفلاحة. وهذا الموقف منه يعتبر إرهاصا لإصلاح الأزهر(٣). تزوج الإمام فى عام ١٢٨٢هـ وبعد أربعين يوما من زواجه ألزمه والده بالذهاب إلى المسجد الأحمدى لإكمال تعليمه، إلا أنه تخلف عن رفاقه فى المسجد الأحمدى، وذهب إلى أخوال أبيه فى قرية"كنيسة أورين" من أعمال مركز شبراخيت محافظة البحيرة وقضى فيها فترة لم تتجاوز الأسبوعين إلا أنها أثمرت وتركت أثرا عميقا فى حياة الإمام الفكرية والدينية.

أثر الشيخ درويش فى حياة الإمام محمد عبده :

يقول الإمام: "وهناك "أى فى كنيسة أورين" صادفت فى مهربى من علمنى كيف أطلب العلم من أقرب وجوهه، فذقت لذته واستمررت فى طلبه"(٤).

---

(٣) انظر: عبقرى الإصلاح والتعليم الأستاذ محمد عبده للعقاد ص ٦٩ وما بعدها، المجددون فى الإسلام لعبد المتعال الصعيدى ص٣٩٩، محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص٢٩ .

(٤) تفسير سورة العصر ص ٦٨، والإمام محمد عبده للدكتور سعيد مراد ص١٥.

وفى هذه المدة القصيرة التقى فيها الإمام بالشيخ درويش خال أبيه وكان صوفيا يشتغل بالوعظ والإرشاد، وكان متأثرا بتعاليم السنوسية التى تتفق مع الوهابين فى الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام إبان عصوره الأولى حيث بساطته ونقاؤه من البدع، وقد كان ذلك إثر رحلته إلى طرابلس العرب واجتماعه بأتباع السنوسى(٥).

ولا شك فى أن الشيخ درويش قد استطاع أن يروض هذا الفتى الثائر وأحدث تغيرا جذريا فى نفسه وعقله. حتى غلبت عليه النزعة الصوفية، وأقبل على طلب العلم مستسيغا ما كان منه مستهجنا من علماء الأزهر وطلابه.

هذا ومن الدروس التى لقنها الشيخ درويش للشيخ محمد عبده ما ذكره أحمد أمين فقد قال: "وقد لقنه درسين جديدين مهمين: الأول نقده للشيخ محمد عبده لعزلته وعدم اتصاله بالناس، وقصر عنايته على تكميل نفسه من غير اتجاه إلى إصلاح من حوله، ولم يكتف الشيخ درويش فى ذلك بالكلام النظرى، بل حمله على أن يغشى المجتمعات فى البلد معه، ويتحدث إلى الناس ويعظهم ويذكرهم، ويدعو محمد عبده للتحدث معهم كحديثه ونصحهم كنصحه، وهو درس انتفع به محمد عبده ونفذه طوال حياته إلى نفسه الأخير، وإن كان السيد جمال الدين قد زاد شيئا فى هذا الدرس فهو تعليمه كيف يختار موضوعات الكلام فى الإصلاح. والدرس الثانى الذى علمه له الشيخ درويش هو هدمه للنظرية التى تقول إن هناك علوما تعلم وعلوما لا تعلم، فكسر الشيخ درويش هذه الحدود، وقرر أن كل العلوم يجب أن تعلم، ويجب أن يطلبها الطالب ما أمكن ولا يستثنى من ذلك شيء، إلا ما يتخذ شكل العلم وليس بعلم كالسحر والشعوذة. أما المنطق والفلسفة والرياضيات وما إلى ذلك فليست بحرام، بل هى واجبة على طالب العلم"(٦).

ولقد كان للشيخ درويش أثر لا ينكر فقد أقبل الإمام على العلم بشغف ونهم يقول الإمام:"لم يأت على اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلى ما كنت أحبه من لعب ولهو، وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إلى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم،

---

(٥) انظر: زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص٣٠٦ .
(٦) زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص٣١٢ .

وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى إلى ما كنت أحب ويزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه اللّه، فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم، بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب"(٧).

هذا وبالرغم من قصر المدة التى قضاها الإمام مع الشيخ درويش إلا أنها أثرت تأثيرا إيجابيا فى حياة الإمام حيث قال:"ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفسى إلا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى أفق المعرفة الواسع، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد...هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى، هو الشيخ درويش خضر من أهل "كنيسة أورين" مركز شبراخيت من أعمال مديرية البحيرة، وهو مفتاح سعادتى إن كانت لى سعادة فى هذه الحَياة الدنيا، وهو الذى رد لى ما كان قد غلب من غريزتى، وكشف لى ما كان قد خفى عنى مما أودع فى فطرتى"(٨).

أثر الشيخ جمال الدين الأفغانى فى شخصية الإمام محمد عبده:

هذا ولقد كان لجمال الدين الأفغانى أثر لا ينكر فى جوانب كثيرة من شخصية الإمام محمد عبده، وبخاصة فى مجال دعوة الإمام إلى التجديد والنهوض بشأن الإسلام والمسلمين.

وبعد أن نال الإمام شهادة العالمية قام بالتدريس فى مدرسة دار العلوم، ثم قام بتحرير جريدة الوقائع المصرية، ونفى الإمام إلى بيروت لاشتراكه فى الثورة العرابية، ثم دعاه جمال الدين الأفغانى إلى باريس وهناك أنشأ مجلة العروة الوثقى، وتعلم الإمام اللغة الفرنسية واطلع على حضارة أوروبا الحديثة فزاده ذلك رغبة فى الجهاد فى سبيل الدعوة إلى الإصلاح. ولما عاد الإمام إلى بيروت اشتغل بالتدريس فى المدرسة السلطانية وألف كتابه "رسالة التوحيد" التى تعد فتحا جديدا فى هذا العلم حيث إنها تفتح المجال للاجتهاد وتقضى على آثار الجمود، وتجعله ملائما لما صار إليه العلم فى العصر الحديث(٩).

---

(٧) عبقرى الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده للعقاد ص٨٩ .

(٨) المرجع السابق ص٩٠ وما بعدها .

(٩) انظر: المجددون فى الإسلام لعبد المتعال الصعيدى ص٣٩٩ وما بعدها.

وبعد أن عاد الإمام من بيروت إلى مصر عين قاضيا بالمحاكم الشرعية ثم عين مفتيا للديار المصرية، وهو منصب له من الخطورة والمنزلة ما يقارب منصب شيخ الأزهر ثم تمكن الإمام من إصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية.

وقام بعدة إصلاحات فى مجالات شتى. ولكن أعداء الإصلاح تألبوا عليه وأخيرا أدركته المنية فى عام ١٣٢٣هـ-١٩٠٥م[١٠]. تاركا وراءه العديد من المؤلفات التى تزخر بها المكتبة الإسلامية. وأهم من ذلك أنه خلف وراءه جيلا من تلامذته الذين درسوا على يديه وتأثروا به، وتمثلوا منهجه الإصلاحى فى حياتهم، فساروا على دربه، وانتهجوا منهجه، وكان لهم أثر لا ينكر فى شأن الإسلام والمسلمين.

مؤلفاتـــــه :

لقد ترك الإمام العديد من المؤلفات القيمة التى تزخر بها المكتبة الإسلامية والتى نوردها كما أوردها الشيخ محمد رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده.

١- الواردات رسالة فى الكلام أو التوحيد على الطريقة الصوفية وأسلوبها.

يقول محمد رشيد رضا عنها:"وهى أول تأليفه وكان قد أعطانا نسخة منها فى حياته. وقد نشرتها فى الطبعة الأولى للجزء الثانى فى منشآته ثم طبعتها على حدة وذكرت أنه قد رجع عن بعض ما كان قرره فيها كما يعلم من رسالة التوحيد له" [١١].

٢-رسالة فى وحدة الوجود :

يقول محمد رشيد رضا: "لم أطلع عليها وهو الذى أخبرنى بها وقال إنها ليست بمعنى ما كتب عبد الكريم الجيلى وأمثاله مما هو أقرب إلى مذاهب الحلول كالنصرانية منه إلى توحيد الإسلام (بل هو أبعد عن الإسلام من النصرانية) ولكنها

---

(١٠) المرجع السابق ص٤٠١ وما بعدها .

(١١) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ٧٧٧/١ .

بأسلوب آخر بين فيها مراتب الوجود وتعددها من وجه، ونظامها العام ووحدتها من وجه آخر" (١٢).

٣- تاريخ إسماعيل باشا :

يقول محمد رشيد رضا: "أخبرنى بهذا الكتاب أحد تلاميذه الأولين وقال إن السيد عبد اللّه النديم كان قد أخذ من الفقيد نسخته أثناء الثورة العرابية ونشر منه فصولا فى جريدة الطائف بتصرف أو بغير تصرف ولم أسمع منه رحمه اللّه- تعالى- ذكرا لهذا الكتاب وكنت أظن أنه لم يصنف شيئا إلا وقد أخبرنى به، لأنه قص على تاريخه بالتفصيل وكتب إلى شيئا مجملا منه كما علم القراء"(١٣).

٤-فلسفة الاجتماع والتاريخ :

هذا الكتاب ألفه الإمام عندما قام بتدريس مقدمة ابن خلدون فى مدرسة دار العلوم. يقول محمد رشيد رضا:"وقد فقد هذا الكتاب عندما عزله توفيق باشا من المدرسة ونفى السيد جمال وأخذت أوراقه. وكان طيب اللّه ثراه يقول: أتمنى لو يحفظ هذا الكتاب من وقع فى يده ويدعيه لنفسه ولو بعد موتى لينتفع به الناس"(١٤).

٥-حاشية عقائد الجلال الدوانى :

يقول عنها محمد رشيد رضا: "هى غاية الغايات فى علم الكلام وتحقيق مسائله وتحرير الخلاف بين المتكلمين وبيان ما هو لفظى منه وما هو حقيقى"(١٥).

٦-شرح نهج البلاغة :

طبع فى بيروت وطرابلس ومصر عدة مرات يقول محمد رشيد رضا: "وكان سبب شرحه له حمل طلبة المدارس على مطالعته لأجل تحصيل ملكة البلاغة من كتاب مملوء بالتوحيد وعظمة الإسلام وذكر فى مقدمته أنه لم يتعرض فيه لمسألة الخلاف، لأن الخلاف فيها بين الشيعة وأهل السنة معروف فى كتبهم.

---

(١٢) المرجع السابق.
(١٣) المرجع السابق.
(١٤) المرجع السابق١/٧٧٧ وما بعدها .
(١٥) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١/٧٧٨.

ولم يكن يعتقد صحة إسناد كل ما فى هذا الكتاب إلى الإمام، كما كان لا يعتقد أنه كله أو جله موضوع كما قال الحافظ الذهبى، ولم يكن يخفى عليه أن فيه دسائس مدرجة فيه ومنها ما ليس من أسلوب الصحابة وعصرهم فى خطبهم وكتبهم كاصطلاحات المتكلمين الحادثة بعدهم"[١٦].

٧- شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى.

٨- شرح البصائر النصيرية فى المنطق.

٩- نظام التربية فى مصر.

يقول محمد رشيد رضا عن هذا الكتاب إنه:"رسالة فى الطريقة المثلى لتربية المصريين وتعليمهم وهى على إيجازها من أحسن ما كتب وأنفعه"[١٧].

١٠- رسالة التوحيد :

يقول عنها محمد رشيد رضا:"هى التى يصدق عليها القول المشهور"لم ينسخ ناسخ على منوالها ولم تسمح قريحة بمثالها" هى التى يصح أن تعد معجزة من معجزات النبى- عليه الصلاة والسلام-، ظهرت على يد الأستاذ الإمام، وآية من آيات الإسلام. هى التى ينبغى أن تجعل مادة الدعوة إلى هذا الدين، ويعم تلقينها جميع المسلمين.... ولقد كان لرسالة التوحيد وقع عظيم فى أنفس أهل العقل والفهم، وعارفى قدر العلم لا من المسلمين وحدهم، بل صرح بعض المستقلين من نصارى سورية بالثناء عليها، حتى قال بعضهم: "إذا كان الإسلام هو ما بينته هذه الرسالة فأنا أول مسلم ولكن مؤلفها فيلسوف دينى يقول ينبغى أن يكون الإسلام كذا"[١٨].

١١- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية :

هذا الكتاب عبارة عن عدة مقالات كتبها الإمام محمد عبده لمجلة المنار ثم طبعت فى كتاب مستقل بهذا الاسم.

---

(١٦) لمرجع السابق.
(١٧) المرجع السابق ٧٧٩/١ .
(١٨) المرجع السابق ٧٧٩/١ وما بعدها .

يقول محمد رشيد رضا عن سبب تأليف هذا الكتاب هو:"إيقاظ المسلمين وإرشادهم إلى أسباب تأخرهم وضياع مجدهم وزوال ملكهم، وإلى المخرج منه، فهو لم يترك شيئا من هذه الأسباب إلا وقد بينه أحسن بيان مؤيدا بالبرهان، فترجيح الإسلام على النصرانية فى حرية العلم ونشأة المدنية كان هو الغرض الأدنى المحرك للكتابة، وإرشاد المسلمين المذكور هو الغرض الأعلى"[١٩].

١٢- تفسير سورة العصر :

يقول محمد رشيد رضا: "وقد كتب الأستاذ فى حاشية كتاب جزء عم عند تفسير هذه السورة ما نصه: "وقد كتبنا تفسيرا لهذه السورة الشريفة نشر وحده بعد أن طبع فى مطبعة جريدة المنار وهو ما كنا ألقيناه درسا فى مدينة الجزائر فى شهر جمادى الأولى ١٣٢١هـ وفيه تفصيل طويل لما أجملناه فى هذا التفسير المختصر فمن أراد بيانا أوسع، وتفصيلا أبدع، فليطلب ذلك التفسير، فهو فيما أعلم غير مسبوق بنظير" [٢٠].

١٣- تفسير جزء عم.

قام الإمام بكتابة هذا التفسير فى بعض أسفاره إلى أوروبا، وأتمه فى جنيف بسويسرا فى صيف عام ١٣٢١هـ، وطبع الطبعة الأولى عام ١٣٢٢هـ. وافتتح خطبته بالإشارة إلى كل ما يحتاج إليه المسلمون من إصلاح فى دينهم ودنياهم[٢١].

١٤- تقرير المحاكم الشرعية.

يقول محمد رشيد رضا عنه: "هو على خصوصية موضوعه مفيد حتى لغير القضاة ومستخدمى هذه المحاكم من جميع أهل العلم والأدب لا سيما طلاب علم الفقه، فإنه يعطيهم من البصيرة فى طريقة التحصيل على الوجه الذى ينتفعون به وينفعون ما لايجدونه فى سواه، وفيه كثير من الفوائد الإدارية والاجتماعية والأدبية، وأحوج الناس إليه بعد القضاة وكتاب المحاكم المرشحون للقضاء وللكتابة

---

(١٩) المرجع السابق ١/٧٨٧ .
(٢٠) المرجع السابق ١/٧٨٧ .
(٢١) انظر: المرجع السابق ١/٧٨٨ .

فى هذه المحاكم"[٢٢].

مكانة العقل[*] عند الإمام محمد عبده:

لقد احتل العقل مكانة كبيرة فى فكر الإمام محمد عبده، ومن ثم رأى أن له أهمية قصوى فى جميع المجالات، وكان يرى أن الإصلاح يتمثل فى أمرين هما:

١ - نبـذ التقليد[**] الأعمى :

---

(٢٢) المرجع السابق ١/٧٨٦ .

(*) العقل فى تعريف أهل النظر جوهر مجرد عن المادة فى ذاته، مقارن لها فى فعله وهو النفس الناطقة التى يشير إليها كل أحد بقوله: أنا. وقيل العقل جوهر روحانى خلقه الله- تعالى- متعلقا ببدن الإنسان. وقيل العقل نور فى القلب يعرف الحق والباطل. وقيل العقل قوة من قوى النفس الناطقة، وهو صريح بأن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة، وأن الفاعل فى التحقيق هو النفس. وقيل العقل والنفس والذهن واحد إلا أنها سميت عقلا لكونها مدركة، وسميت نفسا لكونها متصرفة، وسميت ذهنا لكونها مستعدة للإدراك. والعقل ما يعقل به حقائق الأشياء، وقيل محله الرأس، وقيل محله القلب.

والعقل الهيولانى هو: الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهو قوة محضة خالية عن الفعل كما للأطفال، وإنما نسب إلى الهيولى لأن النفس فى هذه المرتبة تشبه الهيولى الأولى الخيالية فى خلوها من الصور كلها.

والعقل عند أهل اللغة مأخوذ من عقال البعير، يمنع ذوى العقول عن العدول عن سواء السبيل، والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

والعقل بالملكة هو: علم الضروريات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات.

والعقل بالفعل هو: أن تصير النظريات مخزونة عند قوة العاقلة بتكرار الاكتساب، بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد لكنها لا يشاهدها بالفعل.

والعقل المستفاد هو: أن تحضر عنده النظريات التى أدركها بحيث لا تغيب عنه.

انظر: كتاب التعريفات للجرجانى ص١٧٣ وما بعدها ، تحقيق د/ عبد المنعم الحفنى.

(**) التقليد لغة: جعل القلادة فى العنق. وشرعا: العمل بقول الغير من غير حجة وأريد بالقول ما يعم الفعل والتقرير تغليبا ولذا قيل التقليد اتباع الإنسان غيره فيما ==

== يقول أو يفعل معتقدا الحقيقة من غير نظر إلى الدليل كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة فى عنقه من غير مطالبة دليل كأخذ العامى والمجتهد بقول مثله أى كأخذ العامى بقول العامى وأخذ المجتهد بقول المجتهد وعلى هذا فلا يكون الرجوع إلى الرسول-عليه الصلاة والسلام- تقليدا له وكذا إلى الإجماع وكذا رجوع العامى إلى المفتى أى إلى المجتهد وكذا رجوع القاضى إلى العدول فى شهادتهم لقيام الحجة فيها فقول الرسول-صلى الله عليه وسلم- بالمعجزة، والإجماع بما تقرر من حجيته. وكذا الرجوع إلى الصحابى لأنه عمل بقوله-عليه الصلاة والسلام-(أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) ولو سمى ذلك أو بعض ذلك تقليدا كما يسمى فى العرف أخذ المقلد العامى بقول المفتى تقليدا فلا مشاحة فى التسمية والاصطلاح. وكذا قد يسمى اتباع الصحابة تقليدا باعتبار الصورة وربما يعرف التقليد بأنه اعتقاد جازم غير ثابت وغير الثابت هو ما يزول بتشكيك المشكك. وغير المجتهد يلزمه التقليد سواء كان عاميا أو عالما بطرق صالحة من وجوه علوم الاجتهاد. وقيل إنما يجوز للعالم التقليد بشرط أن يتبين له صحة اجتهاد المجتهد بدليله. واختلف فى جواز التقليد فى العقليات كمسائل الأصول فقال البعض بجوازه، وقالت طائفة بوجوبه وأن النظر والبحث حرام.

انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ١١٧٨/٣. والتعريفات للجرجانى ص٧٢، والمعجم الفلسفى للدكتور جميل صليبا ٣٢٧/١.

هذا ومن الشروط التى يجب توافرها فى المجتهد ما يلى:

١- أن يكون المجتهد بالغا عاقلا، فقيه النفس أى شديد الفهم بالطبع لمقاصد الكلام.

٢- أن يكون المجتهد مؤمنا صحيح الإيمان فيؤمن بالله-تعالى- وما يجب له من الصفات، وما يستحقه من الكمالات، وأنه حى قادر مريد متكلم حتى يتصور منه التكليف، وأن يكون مصدقا بالرسول- صلى الله عليه وسلم- وما جاء به من الشرع المنقول.

٣- أن يكون عالما بمدارك الأحكام الشرعية وأقسامها وطرق إثباتها ووجوه دلالتها على مدلولاتها، واختلاف مراتبها والشروط المعتبرة فيها، وأن يعرف جهات ترجيحها عند تعارضها، وكيفية استنباط الأحكام منها. ولا يتم ذلك إلا بمعرفة أمور:

١-معرفة الكتاب . ==

٢ – إصلاح اللغة العربية.

يقول الإمام محمد عبده فى هذا الإطار: "وارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ورد الفكر فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه. أما الأمر الثانى:فهو إصلاح اللغة العربية..."(٢٣).

لذا فقد رأى الإمام أن الطريق لمواجهة جمود علم التوحيد لا يكون إلا بالعقل عن طريق إبراز دوره وتوجيه العقل توجيها سليما إلى فهم الأصول العقدية وتنقيتها مما يشوبها من شوائب.

لذلك نجد أن الإمام يبين أهمية العقل فى مجال علم التوحيد وذلك من خلال ما قاله فى رسالة التوحيد فقد قال إن:"هذا النوع من العلم- علم تقرير العقائد- وبيان ما جاء فى النبوات- كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام، ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك، لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى، وبناء آرائهم

== ٢-معرفة السنة.
٣-معرفة مواقع الإجماع.
٤-معرفة الدلائل العقلية والبراءة الأصلية.
٥- معرفة علم شرائط الحد والبرهان.
٦-تحصيل الدرجة الوسطى فى معرفة العربية من لغة ونحو وتصريف وبلاغة.
٧- أن يكون عارفا بالناسخ والمنسوخ.
٨- أن يكون عالما بعلم أصول الفقه.
انظر: المحصول للرازى ٤٩٦/٢ وما بعدها، الإحكام للآمدى ١٤١/٤ وما بعدها، شرح المحلى على جمع الجوامع بحاشية العطار ٤٢١/٢ وما بعدها، تيسير التحرير ١٨٠/٤ ومابعدها، نهاية السول للإسنوى ١٩٩/٣ ومابعدها، إرشاد الفحول للشوكانى ص٢٥٠ ومابعدها.

(٢٣) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده لمحمد رشيد رضا ١١/١، زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص٣٥٥، محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص٩٦.

وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود، أو ما يشتمل عليه نظام الكون، بل كانت منازع العقول فى العلم، ومضارب الدين فى الإلزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض.

وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته، فكان جل ما فى علوم الكلام تأويلا وتفسيرا وإدهاشا بالمعجزات أو إلهاء بالخيالات"[٢٤].

لكن علم التوحيد الذى نشأ وترعرع فى ظل الإسلام لتأييد العقيدة الإسلامية والدفاع عنها قد أفسح الطريق للعقل وفتح له مجالا كبيرا وحث على النظر والتأمل والتدبر فى أحوال الكون.

يقول الإمام محمد عبده فى هذا الصدد: "ولكنه- أى القرآن- ادعى وبرهن، وحكى مذاهب المخالفين، وكر عليهم بالحجة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه حتى إنه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخلق سنة لا تتغير، وقاعدة لا تتبدل فقال: **{سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا}**[٢٥]، وصرح بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وصدق الله العظيم القائل: **{إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}**[٢٦]، واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب فقال: **{ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم}**[٢٧] وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل"[٢٨].

ويؤكد الشيخ الإمام محمد عبده أن أصول الدين التى هى موضوع علم

---

(٢٤) رسالة التوحيد ص٩ حققها وعلق عليها محى الدين عبد الحميد.
(٢٥) الآية (٢٣) من سورة الفتح .
(٢٦) من الآية (١١) من سورة الرعد .
(٢٧) من الآية (٣٤) من سورة فصلت .
(٢٨) رسالة التوحيد ص ٩ وما بعدها .

التوحيد وما يتبع هذه الأصول من فروع لا طريق إلى الاعتقاد بها إلا بالعقل حيث: "تقرر بين المسلمين كافة- إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه- أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحى به إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه معنى الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم، فلايمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل"(٢٩).

ومؤلفات الشيخ محمد عبده وكتاباته مليئة بالإشادة بدور العقل بوصفه أجل القوى التى منحها الله-تعالى- للإنسان. الأمر الذى يقتضى وضع العقل فى مكانه الصحيح لهداية البشر وإرشادهم فى شتى مناحى الكون وفيما وراءه أيضا(٣٠).

يقول الإمام محمد عبده: "العقل قوة من أفضل القوى الإنسانية، بل أفضلها على الحقيقة"(٣١).

كما يقول عنه فى موضوع آخر:" العقل من أجل القوى، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون جميعه هو صحيفته التى ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه، وكل ما يقرأ فيه هو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه"(٣٢).

هذا ولقد جعل الإمام العقل نقطة الارتكاز التى اعتمد عليها فى الإصلاح الدينى وذلك من خلال عدة نقاط نذكر منها:

١- إعلاؤه شأن العقل فى تفسير القرآن الكريم إذ كان يرى أنه يجب على الذين يفسرون القرآن الكريم أن يفسروه تفسيرا حديثا مستنيرا،وأن يطرحوا جانبا رؤية السابقين من المفسرين، ويتزودوا بالأدوات اللغوية ومعرفة أسباب النزول

---

(٢٩) المرجع السابق ص١٠ .

(٣٠) انظر: مكانة العقل فى فكر الشيخ محمد عبده للدكتور محمود زقزوق ص ٥٣ .
"بحث ضمن بحوث ودراسات عن حياة وأفكار الشيخ محمد عبده بمناسبة ذكرى مرور تسعين عاما على وفاته" إشراف وتصدير د/ عاطف العراقى.

(٣١) الإسلام دين العلم والمدينة ص١٣٠ .

(٣٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ١٨٣/١ تحقيق د/محمد عمارة.

ومعارف التاريخ الإنسانى عن حياة الكون والشعوب التى يعـــرض لـــها القـــرآن الكريم.

حيث يرى أن رؤية المفسرين السابقين قد ارتبطـــت بالمســـتوى العقلـــى ودرجة العلم التى بلغوها وتحصلت فـــى مجتمعاتـــهم وبيئاتـــهم الثقافيـــة. فليـــس بالضرورة أن يكون عقلنا واقفا عند ما بلغوه فقط، وأن لا تكون حصيلتنا الفكريـــة هى فقط ما حصلوه.

لذلك نجد أن الإمام قد حدد منهجه فى تفسير القرآن الكريـــم حيـــث قـــال عندما خاطب أحد أعضاء جمعية العروة الوثقى: "داوم على قراءة القرآن، وتفـــهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وعبره، كما كان يتلى على المؤمنين والكـــافرين أيـــام الوحى، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العـوب منه، أو ارتباط مفرد بآخر خفى عليك متصله، ثم اذهب إلى ما يشـــخصك القـــرآن إليه، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه، وضم إلى ذلك مطالعة الســـيرة النبويـــة، واقفا عند الصحيح المعقول حاجزا عينيك عن الضعيف والمبذول"(٣٣).

٢- إعلاؤه شأن العقل باعتباره قوة من قوى الإنسان بل أفضلـــها وذلـــك بمقارنته بالقوى الأخرى التى منحها الله للإنسان كى يتمتع بها(*).

---

(٣٣) المرجع السابق ١٨٣/١ .

(*) يقول المحقق الدكتور محمد عمارة إن:"الأستاذ الإمام يقف فى هذا الأمر قريبا جـدا من موقف الفلاسفة الإلهيين، ومنهم المعتزلة بين مدارس المتكلمين المسلمين، فـــهو يعتبر كل النتائج التى يصل إليها العقل سبلا توصل إلى ذات الله، أى أن طريـــق العقل هو طريق معرفة الله.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد إن الإمام:"مـــع المعتزلـــة فـــى تحكيـــم العقـــل والاستهداء به إلى هدى الدين، ولكنه لا يرى رأيهم فى الاستغناء بالعقل وحده، لأنه يفرق بين مطابقة الدين للعقل وبين الاكتفاء بالعقل فى المسائل النظرية والشـــرعية، إذ لا بد من تسليم العقل بنصيب الشرع من الهداية، ما دام العقل يعلم أنه لا ينفـــذ إلى كنه الأشياء، وأن العقول الإنسانية موكولة إلى حكمة الغيب حيث وقـــف بـــها مدى التفكير". هذا مع تحفظنا على ما يراه الأستاذ العقاد من أن المعتزلة يســـتغنون بالعقل وحده. انظر: عبقرى الإصلاح والتعليم ص٢٤٩ وما بعدها .

يقول الإمام فى هذا الإطار إن: "العقل من أجل القوى، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون جميعه هو صحيفته التى ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه، وكل ما يقرأ فيه هو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه" فليس هناك إذن صفحات فى هذا الكون محظور على العقل الإنسانى أن يطالعها ويرى فيها ما يراه، ذلك أن الحدود التى تحدد نطاق النظر العقلى هى حدود الفطرة لا النصوص المأثورة، فالله قد"أطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد". وما ذلك إلا لأن "العقل قوة من أفضل القوى الإنسانية بل أفضلها على الحقيقة"(٣٤).

ولكى يؤتى العقل ثماره المرجوة لابد وأن يتخلص من عدة عقبات تقف فى طريقه من أهمها:

١- التقليد الأعمى، فإن التقليد يلغى دور العقل ذاته، ولذلك كان التقليد من سمات الحيوان الذى يحيا بغريزته لا بعقله.

٢- المصادر السيئة للتثقيف التى تؤدى إلى تخدير العقل.

ونتحدث الآن عن العقبة الأولى التى تعترض طريق العقل وهى التقليد الأعمى، لذا أكد الإمام على نبذ التقليد الأعمى والدعوة إلى الاجتهاد.

١- نبذ التقليد والدعوة إلى الاجتهاد

يعتبر التقليد من أهم العقبات والعثرات التى تعترض طريق العقل الإنسانى، وتمنعه من أداء دوره الفعال والمؤثر فى الحياة، لأنه يلغى العقل ويقضى على شخصية الفرد ويمتهن كرامته. فالإنسان المقلد تقليدا أعمى للمذاهب والأفكار التى يعتنقها الناس يكون مجرد تابع لغيره لا رأى له ولا فكر.

وهذا التقليد ضلال يعذر فيه الحيوان، ولا يصح بحال من الأحوال من الإنسان الذى منحه الله-تعالى- العقل وميزه عن بقية الكائنات.

يقول الإمام فى نقده التقليد ودعوته إلى النظر العقلى والاجتهاد إن الكتاب قد:"أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ

---

(٣٤) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ١٨٣/١ ومابعدها.

إليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملى، والحق ما قال، فإن التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان، ولاتجمل بحال فى الإنسان"(٣٥).

لهذا نجد أن الإمام محمد عبده كان حريصا على عدم التقليد فى مؤلفاته وكتاباته وإفتاءاته وهو بذلك يعتبر من المجددين، وكان لا يعتمد على ما كتبه المتأخرون فى مراحل الضعف والاستكانة ويفضل الاستنباط الشخصى، ويحث العقل على الاستنتاج، وإذا اقتضت الضرورة الرجوع إلى أصل فليكن هذا فى مؤلفات القرنين الثالث والرابع الهجريين عصر النهضة الإسلامية. وكان تفسيره لقوله -عزوجل-: **{وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين}**(٣٦) دليل على ذلك فقد قال إن القرآن:"علم أهله أن يطالبوا الناس بالحجة، لأنه أقامهم على سواء المحجة، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل، ونهوا عن الأخذ بشىء من غير دليل. ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد وأمر بالتقليد، ونهى عن الاستدلال على صحة التقليد، حتى كأن الإسلام خرج عن حده، أو انقلب إلى ضده، وصار الذين يعلمون أن الإسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد، وبالمطالبة بالبرهان والدليل، وعلم الناس استقلال الفكر مع المشاورة فى الأمر، يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل، ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل، وياليته كان الأخذ بقال الله وقيل فيما يروى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان"(٣٧).

ولقد كان من أسباب محاربة الإمام للتقليد، ونعيه على المقلدين، وإلحاحه على الاجتهاد هو أن الحياة الإنسانية للمجتمع الإنسانى أصبحت حياة متطورة، يجد

---

(٣٥) رسالة التوحيد ص٢١ .
(٣٦) الآية (١١١) من سورة البقرة .
(٣٧) تفسير المنار ٤٢٥/١ .

فيها من الأحداث والمعاملات اليوم ما لا يعرفه أمس هذه الجماعة، والاجتهاد هو الوسيلة العلمية والنظرية المشروعة للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة وتعاليم الإسلام العامة[٣٨].

ولقد أعلن الإمام حاجة المسلمين إلى عدة أمور من أهمها استعمال العقل ورفض التقليد حيث يقول: "... إن اليقين لا يحصل بقراءة الأدلة وخزنها في الأذهان، وإنما يحصل بالاستدلال الصحيح، وإدراك العقل وجه الدلالة من نفسه دون تقليد، كما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان، كما هدانا الله إلى ذلك في كتابه الكريم"[٣٩].

ويؤكد مرارا على هذا فيقول: "... أقول قولي هذا ، ولا أريد إلزام أحد بقبوله، وإلا خالفت ما أدعو إليه من استقلال الفكر وحرية الرأي"[٤٠].

هذا ولقد شدد الإمام محمد عبده على ضرورة تحرير الفكر من أغلال التقليد، وذهب إلى أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا معليا لعقول على عقول. فالسابق واللاحق يستويان في التمييز والفطرة، وهناك إمكانات متوفرة أمام اللاحق لم تكن متاحة لمن سبقه فاللاحق"له من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه"[٤١].

ولقد أشار الإمام إلى دور الإسلام الحاسم في مجال تحرير الفكر من أغلاله وقيوده حيث إن الإسلام قد" أطلق سلطان العقل من كل ما كان قد قيده، وخلصه من تقليد كان قد استبعده، ورده إلى مملكته يقضي فيها بحكمه وحكمته"[٤٢].

---

(٣٨) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي ص١٣٣.

(٣٩) الإسلام دين العلم والمدنية ص ١١٨ وما بعدها .

(٤٠) المرجع السابق ص١١٨ وما بعدها .

(٤١) رسالة التوحيد ص١٢٠ .

(٤٢) المرجع السابق ص١٢١ .

وبذلك يكون قد"تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما هما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر، وبهما كملت له إنسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها"(٤٣).

وهكذا ظل الشيخ الإمام محمد عبده طوال حياته يحارب التقليد ويدعو إلى تحرير العقل، وإطلاق الفكر من قيود التقليد بوصفه أداة لتمحيص الآراء ومعرفة وجه الحق فى الأفكار(٤٤).

هذا بالإضافة إلى أنه يتصل برفض التقليد رفض أية سلطة تمثل ضغطا قاهرا على الفكر بأى أسلوب من الأساليب لتوجيهه فى اتجاه معين، وبصفة خاصة سلطة رجال الدين المتزمتين الذين اتخذوا من الدين وسيلة لتحقيق أهدافهم الخاصة وغايتهم الدنيوية.

يقول الإمام فى هذا الصدد: "رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية، استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم"(٤٥).

لقد أدرك الإمام أن السبيل لخروج المسلمين من أزمتهم إنما يكون بترك التقليد والاعتماد على الفهم والاستنباط والاستنتاج، واتباع أساليب المنهج العلمى الحديث فى البحث، لذلك دعا علماء عصره إلى عدم الاعتماد على كتب المتأخرين التى ألفت فى عصور الركود والضعف، وذلك لتأثيرها السلبى فى توجيه الحياة، وعجزها عن توجيه العقل الإسلامى فى مسايرة الحياة وتطورها، والأفضل لهم أن يطلعوا على كتب القرون الأولى للإسلام كالقرن الثالث والرابع الهجريين، يقول الإمام: إذا رجعنا إلى كتب- القرون الأولى للإسلام- فترة ما قبل الركود - كالزيلعى مثلا- نكون قد خطونا لإصلاح الكتب والفقه، وما دمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتأخرة المتداولة، ولا نعرف الدين والعلم إلا منها، فلا نزداد إلا جهلا، هذا الشوكانى: لما كسر قيود التقليد الأعمى، حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما

---

(٤٣) المرجع السابق ص١٢١ .
(٤٤) انظر: زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص٣٣٥ .
(٤٥) رسالة التوحيد ص ١٢١ .

وفقيها، إن حالة الفقهاء هذه- فى كتب المتأخرين هى التى ضيعت الدين... لقد صرفوا جل اهتمامهم إلى البحث فى أحكام الطهارة والعبادات فى بحوث وتدقيقات مسرفة فى مسائل الماء والطهارة والصلاة ؟!، مع أن المسلم العادى يشغله أكثر ما يشغله البحث فى مسائل الكسب والعمل، أما مسائل العبادات فيمكن إيضاحها فى ورقات قليلة وبحوث بدلا من هذه الكتب والمتون الضخمة(*)(٤٦).

لذلك دعا الإمام بكل قوة إلى فتح باب الاجتهاد، وأنكر القول الشائع الذى يرى أن باب الاجتهاد قد أغلق.

هذا ولا شك فى أن الاجتهاد الذى ينادى به الإمام إنما هو اجتهاد يحاول صياغة فقه جديد يتلاءم مع تطور الحياة الإسلامية، وما يجد فيها من جديد لا يعرفه أمس هذه الحياة، اجتهاد يلائم بين الحياة المتجددة وتعاليم الإسلام، تلك التعاليم التى لو وقفت عند حد فقه الأئمة السابقين لسارت الحياة الإسلامية فى عزلة عن التوجه الإسلامى، وبقيت أحداثها بمنأى عن التكيف الإسلامى، فضلا عن أنه لا يحقق للشريعة دلالتها العميقة فى أنها الهدى الأزلى، وهذا بلا شك وضع سيحرج المسلمين فى إسلامهم وحياتهم معا!!، وهذا يؤدى إما إلى أن تقل قيمة الإسلام فى نفوسهم تحت ضغط تيار الحياة وأحداثها، وإما أن يقفوا عن متابعة

(*) نحن مع تقديرنا للدور الذى قام به الإمام إلا أننا لسنا معه فى التهوين من القضايا الفقهيةالتى راح يهون من شأنها، ويقلل من قيمة البحوث التى كتبت فيها، بل ويحقر من جهود العلماء الذين بذلوا الكثير من وقتهم وعلمهم فى دراستها وتوضيح قضاياها. فليس فى العبادات وأحكامها شىء هين لا يستحق ما بذل فيه.فالوضوء والصلاة لهما وزنهما الثقيل. والصلاة وإن كانت عماد الدين، فالوضوء فى مستواها ومنزلتها لأنه السبيل إلى أدائها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.وليس من المنتظر أو اللائق بالمسلم أن يقلل من شأن الصلاة والوضوء، والمياه التى يجوز منها الوضوء. فمثل هذا يعتبر تطرفا بل تنكبا للطريق السوى.
نعم... قصارى ما يكون للشيخ محمد عبده أن ينعى على المسلمين إهمالهم للجوانب الأخرى من قضايا الدين التى يرى هو أنها مهمة، مع بذله الشكر والتقدير لهؤلاء الذين بذلوا جهودهم فى توضيح قضايا الوضوء والصلاة وما إليها من أمور لا يقوم الدين إلا بها.

(٤٦) انظر: تاريخ الإمام لمحمد رشيد رضا ٩٤٣/١ وما بعدها.

السير فى الحياة فيصيروا فى عزلة عن الحياة نفسها وضد الحياة وقانونها، ومع تقدم الزمن يستنفذ المجتمع الإسلامى والإسلام وجودهما فى التاريخ(٤٧).

وإننا نجد أن الإمام عندما دعا إلى فتح باب الاجتهاد لم يكن بدعا غير مسبوق فيما ذهب إليه، إننا نجده يستشهد بالشوكانى(١١٧٣- ١٢٥٠هـ) حيث يقول:"هذا الشوكانى لما كسر قيود التقليد الأعمى، حيث كان وهابيا معتدلا، صار عالما وفقيها"(٤٨).

والشوكانى كان من أعظم فقهاء اليمن الزيدية المتأثرين بالمعتزلة، دحض وأبطل المقولة التى سادت زمنا طويلا، وهى اختصاص سلف الأمة بإحراز فضيلة السبق فى العلوم دون خلفها، وعلى أساس هذه المقولة حصر البعض من المفكرين العلم والاجتهاد فى السلف الأوائل فقط، بحيث يتعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة عند بعضهم والمائة السابعة عند البعض الآخر(٤٩).

ونجد هذا عند ابن رجب الحنبلى المتوفى ٧٩٥ هـ حيث يقول:"وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون فى بعض من توسع فى القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من يظن فى شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول: هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين وهذا يلزم منه ما قبله، لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولا ممن كان قبلهم، فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله كان أعلم ممن كان أقل منهم قولا بطريق الأولى كالثورى والأوزاعى والليث وابن المبارك وطبقتهم، ومن قبلهم من التابعين والصحابة أيضا، فإن هؤلاء كلهم أقل كلاما ممن جاء بعدهم، وهذا انتقاص عظيم بالسلف الصالح، وإساءة ظن بهم ونسبة لهم إلى الجهل

---

(٤٧) انظر: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ١٣٣ وما بعدها .

(٤٨) تاريخ الأستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا ٩٤٣/١ ، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص١٣٦ .

(٤٩) انظر: إعادة بناء علم التوحيد عند الأستاذ الإمام محمد عبده للدكتور محمد صالح ص ٣٩.

وقصور العلم"(٥٠).

ويقول أيضا ابن رجب الحنبلى: "وفى زماننا يتعين كتابة كلام السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعى وأحمد وإسحاق وأبى عبيد، وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم، فإنه حدث بعدهم، حوادث كثيرة... فمن لم يأخذ العلم من كلامهم، فإن ذلك الخير كله، مع ما يقع فى كثير من الباطل متابعة لمن تأخر عنهم"(٥١).

وهذا يعنى التنكر لمن جاء بعد السلف وأئمتهم، وحصر مصادر العلم فى سلف الأمة دون خلفها.

ولا شك فى أن ذلك غير صحيح على إطلاقه، وقد رد الشوكانى وأكد خطأ ذلك حيث قال: "وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم، وأنزر نصيب من عرفان، وأحقر حصة من فهم، لأنها قصر للتفضيل الإلهى والفيض الربانى على بعض العباد دون البعض، وعلى أهل عصر دون عصر، وأبناء دهر دون دهر بدون برهان ولا قرآن، على أن هذه المقالة المخذولة والحكاية المرذولة تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة عن قائم بحجج الله، ومترجم عن كتابه وسنة رسوله، ومبين لما شرعه لعباده، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مزية، وذهاب الدين بلا شك وهو -تعالى- قد تكفل بحفظ دينه، وليس المراد حفظه فى بطون الصحف والدفاتر، بل بإيجاد من يبينه للناس فى كل وقت وعند كل حاجة... إن الله وله المنة قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف، بل ربما كان فى أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة"(٥٢).

وإذا كان الإمام الشوكانى قد رفض حصر العلم فى سلف الأمة دون خلفها، فإنه قد ذهب إلى أبعد من ذلك حيث ذهب إلى أنه ربما كان الاجتهاد فى العصور المتأخرة أيسر من الاجتهاد فى العصور السابقة وفى هذا الإطار يقول:

---

(٥٠) فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلى ص ١٢ .

(٥١) المرجع السابق ص ١٣ .

(٥٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى ١/ ٢ وما بعدها.

"إنه لا يخفى على من له أدنى فهم أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيرا لم يكن للسابقين، فقد دونت التفاسير، وصارت من الكثرة ما لا يمكن حصره، كذلك السنة المطهرة والكلام فى العدل والتجريح، لقد كان الرجل من المتقدمين يرحل للحديث الواحد من قطر إلى قطر، فالاجتهاد على المتأخرين أيسر، ولديهم من المعارف ما لا يعرفها الأولون"(٥٣).

ونحن مع اتفاقنا مع الشيخ الإمام محمد عبده، والشيخ الإمام الشوكانى فى الجملة إلا أننا لا نستطيع أن نتابعهم فى القول بأن الخلف قد يكونون أفضل من السلف أو حتى قد يحوزون من الفضل مثل ما حاز السلف. فذلك خطأ من جانبين:

الأول: أن السلف بإطلاق فيهم الصحابة- رضوان الله عليهم- وهؤلاء اجتمعت الأمة على أنهم أفضل القرون، وأنهم نجوم الإسلام والمسلمين بأيهم اقتدى المسلم فقد اهتدى. وهذه مقالة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إنهم خير القرون، وأنهم كالنجوم، وأن أحدنا لو تصدق بمثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، وهم فى منزلتهم هذه لعلمهم وبلائهم وتقواهم.

الثانى: أن الأولين من سلفنا ــ صحابة، وتابعين، وتابعيهم ــ كلهم قد قعدوا للعلوم الدينية ورادوا الطريق لمن جاء بعدهم، وقد أقاموا من العلوم صروحا شاهقة بذلوا فيها من الجهد ما لا يستطيع لاحق أن يبذل. وقد بين ذلك الشوكانى حيث ذكر أن الواحد منهم كان يسعى فى تصحيح حديث واحد ما لا يسعاه لاحق فى مؤلف كامل..

وإذا كان الإمام الشوكانى يذكر أنه فى عصره والعصور اللاحقة علوما تيسرت له لم تكن موجودة على عهد السلف فإن ذلك من صنع السلف الذين ينعى عليهم ويقلل من شأنهم ومن جهودهم التى وفروا بها للخلف ما يتعالون به على السلف الصالح ــ رضوان الله عليهم ــ.

هذا والدعوة إلى نبذ التقليد وفتح باب الاجتهاد نادى بها الشيخ جمال الدين الأفغانى ونادى بها أيضا الإمام محمد عبده وسار على نفس النهج تلميذه الشيخ

---

(٥٣) المرجع السابق ص ٨٤/٢ نقلا عن: إعادة بناء علم التوحيد عند الأستاذ الإمام محمد عبده للدكتور محمد صالح ص ٤٠ .

محمد رشيد رضا.

هذه هى إحدى العقبتين اللتين أكد الإمام على تخلص العقل منهما حتى يؤتى ثماره ويؤدى وظيفته وهى:

١-التقليد الأعمى.

أما العقبة الثانية فهى التخلص من المصادر السيئة للتثقيف والتى تقف حجر عثرة فى طريق العقل. والمقصود بمصادر التثقيف المصادر التى يستقى منها الناس علومهم ومعارفهم وثقافاتهم وبالتالى يكون لها دور كبير فى التكوين الفكرى للأفراد والجماعات. لذا يجب أن تكون هذه المصادر صالحة لبناء العقول وتغذيتها حتى يقوم العقل بدوره.

ولما كانت الكتب من أهم الينابيع التى يستقى منها العقل معارفه، فقد تحدث عنها الإمام ولفت الأنظار إلى الأضرار التى تنجم عن مثل هذه الكتب التى تعمل على إفساد العقول. كتلك الكتب التى تحتوى على الخرافات والأساطير والشعبذة... إلخ.

والتى وصفها الإمام بأنها:"كتب الأكاذيب الصرفة وهى ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع(*) ... ومنها كتب الخرافات(**)، وهى تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات إلى الأرواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت، وتارة تتكلم فى ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الأسباب التى لا مناسبة بينها وبين ما زعموه ناشئا عنها، وتارة تثبت ما لا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف"(٥٤).

ولا شك أنه لا يخفى على أحد ما فى هذه الكتب من أخطار، حيث تنشر الجهل والخرافات بين الناس، وتقف حجر عثرة بينهم وبين الأسباب الحقيقية للأحداث الكونية، والأحداث التى تمر بهم فى الحياة اليومية على المستوى الفردى

(*) مثل كتب (أبو زيد الهلالى) و(عنتر عبس) و(إبراهيم بن حسن) و(الظاهر بيبرس) .

(**) مثل كتب (الوفق) و(الحرف) و(الزايرجات) و(أبو معشر) و(الكواكب السيارة) و(شمس المعارف الكبرى والصغرى) و(استحضار الخادم).

(٥٤) انظر: الأعمال الكاملة٣/٥٠ .

والجماعى، وبالتالى يركنون إلى الكسل وعدم إعمال العقل ولا يدركون مـــا هـم عليه من جهل وتخلف وجمود وانحطاط.

هذا ولم يكتف الإمام بمجرد التنبيه إلى السلبيات الناجمة عـــن مثـل هـذه الكتب، بل دعا العقل إلى التحرر والتزود بالمعارف الصحيحة والعلوم النافعة مـــن الكتب المفيدة الصحيحة(***) التى تؤهل صاحبها لمعرفة الغث مـــن الثميـن مـن الأفكار، وتقويم البراهين وتسديدها وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها(٥٥).

وأنه لمن الرائع حقا عندما يتحدث الإنسان عن أمر ما أن يكون مثالا عمليـا تطبيقيا حتى تعم الفائدة. لذلك فإننا نجد الإمام محمد عبده كان مثالا عمليا عندما بـدأ بنفسه وطبق هذا المبدأ وهو لا يزال فى مرحلة طلب العلم حيث كان يغذى عقلـــه وفكره بالعلوم العقلية والمنطقية النافعة. وقد وشى الحاقدون آنذاك إلى والد الإمـــام بأن ابنه يدرس علوم الضلالات التى توقع فى الشبهات وتزلزل المعتقدات، فســافر الوالد إلى ولده عند سماعه نبأ هذه الكارثة ووصل إلى ابنه بالقاهرة فـــى الســاعة الثالثة صباحا محذرا إياه بالويل والثبور وعظائم الأمور، وقد ذكر الإمـــام محمـد عبده هذا فى مقال له بصحيفة الأهرام عام ١٨٧٧م. وقد هدأ الابن من ثورة أبيـــه وطمأنه إلى أن ما يدرسه أمور لا صلة لها بالكفر والضلال. فدراسة العلوم العقليـة تعد ضرورة لا غنى عنها لأمور الدين والدنيا على السواء(٥٦).

ومما تجدر الإشارة إليه ألا يقتصر ما نبه إليه الإمام على الكتب فقط، بـل يجب أن يتناول كل وسائل الإعلام سواء المقروء منـــها أو المســموع أو المرئـــى تعميما للنفع وتكثيرا للفائدة.

(***) حيث دعا عاشق كتب (أبو زيد الهلالي) وأمثالها أن يستبدلوا بها كتب التـــاريخ الصحيح كتاريخ المسعودى، والكامل لابن الأثير.

(٥٥) انظر: المرجع السابق ٣/١٥ ، ١٧، ٥١ .

(٥٦) انظر: المرجع السابق ٣/١٥ وما بعدها .

obeikandl.com

موقف الإمام محمد عبده من التأويل(*):

لقد كانت هناك دوافع دفعت الإمام إلى استخدام التأويل للنصوص الدينية ومن هذه الدواعى:

١- التقريب بين الإسلام والعلم الحديث وذلك لأن المشتغلين بالعلوم المدنية لا يقبلون إلا ما تجيزه عقولهم وتؤيده مناهجهم العلمية.

٢- إبراز القيم الإيجابية للإسلام والتى تحقق السعادة للناس فى دنياهم وأخراهم.

٣- تطهير الشعور الدينى عند العامة من المسلمين وكذلك الخاصة والمشتغلين بالدين مما علق بأذهانهم من صور مادية وأساطير حشوية(٥٧).

ومن ثم نجد أن الإمام قد عارض كثيرا مما ذهبت إليه الظاهرية والحشوية الذين التزموا التفسيرات الحرفية للنصوص الدينية.

والإمام عندما لجأ إلى التأويل لم يلجأ إليه لتأييد مذهب كلامى أو فقهى، كما كان الحال عند أصحاب المذاهب الكلامية، أو أصحاب المذاهب الفقهية، وذلك لأن الإمام دعا إلى التحرر من العصبية المذهبية سواء أكانت فى مجال العقيدة أم

(*) التأويل يقال بثلاثة أوجه:

١- بمعنى التفسير وهذا معمول به فى اللغة ومنه قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لابن عباس داعيا له: (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل)

٢- إخراج اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله لوجود قرينة.

٣- جعله قسيما للتنزيل، أو الظاهر من الشرع الشريف وذلك مذهب الباطنية والرافضة الذين زعموا أن للشرع الشريف كتابا وسنة ظاهرا يعرفه العامة وقد جاء لهم وهم مخاطبون به. وباطنا لا يعرفه إلا الخاصة وهم الفلاسفة أو أهل الباطن وقد انتشر لديهم القول بأن لكل تنزيل تأويلا، ولكل ظاهر باطنا ولكل نبى وصيا..إلخ. والمعنى الذى نتحدث عنه إنما هو الثانى. أى إخراج اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله لوجود قرينة... ويلاحظ أن القرينة قد تكون عقلية كما عند المتكلمين أو أكثرهم. وقد تكون شرعية نقلية كما عند السلف.

(٥٧) انظر: رائد الفكر المصرى للدكتور عثمان أمين ص ١٧١، ١٨٢ .

الفقه، كذلك كان يحذر من الدخول فى بحث القرآن الكريم بعد الاعتقاد بعقيدة سابقة، أو تأويل الآيات القرآنية لتوافق مذهبا دون آخر.

وكان الإمام يرى أن اللجوء إلى التأويل إذا كان لغرض: كدفع معاند أو إقناع جاحد فلا بأس به إذا سلم برهانه من التشويش والتقليد(٥٨).

وبالنسبة لموقف الإمام من مسالة التأويل أو التفويض فإننا نجد أنه يلجأ إلى التأويل فى مواطن عديدة. أما فيما يتصل بالآيات المتشابهة فى مجال الصفات الإلهية فإنه يسير على الطريقتين أى طريقتى السلف والخلف لأنه لابد للكلام من فائدة يحمل عليها، لأن الله ــ عز وجل ــ لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى.

وفيما يلى سنعرض رأى الإمام مُحمد عبده إزاء هذه القضية حيث قال: "أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله ــ تعالى ــ منزه عن مشابهة المخلوقات، وقد قام البرهان العقلى والبرهان النقلى على هذه العقيدة فكانت هى الأصل المحكم فى الاعتقاد الذى يجب أن يرد إليه غيره وهو التنزيه، فإذا جاء فى نصوص الكتاب أو السنة شىء ينافى ظاهره التنزيه، فللمسلمين فيه طريقتان:

إحداهما: طريقة السلف وهى التنزيه الذى أيده العقل كقوله ــ تعالى ــ: **{ليس كمثله شىء}**(٥٩) وقوله ــ عز وجل ــ **{سبحان ربك رب العزة عما يصفون}**(٦٠) وتفويض الأمر إلى الله ــ تعالي ــ فى فهم حقيقة ذلك، مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا، ويأتينا فى ذلك بما يقرب المعانى من عقولنا ويصورها لمخيلاتنا.

والثانية: طريقة الخلف وهى التأويل إذ يقولون: "إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل فلا يخرج شىء منها عن المعقول، فإذا جزم العقل بشىء ورد فى النقل خلافه فإن الحكم العقلى القاطع يكون قرنية على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغى طلبه بالتأويل. وأنا على طريقة السلف فى وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله ــ

---

(٥٨) انظر: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ١٣٠ .
(٥٩) من الآية (١١) من سورة الشورى .
(٦٠) الآية (١٨٠) من سورة الصافات .

تعالى ــ وصفاته وعالم الغيب. وإننا نسير فى فهم الآيات على كلتا الطريقتين، لأنه لابد للكلام من فائدة يحمل عليها لأن الله ــ عز وجل ــ لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى"(٦١)(*).

أما بالنسبة لمفهوم الملائكة فإنه يؤولها ذاهبا إلى أنها أرواح أو قوى ويود بذلك على ما يعترض على تأويله حيث يقول: "أفلا تزعم أن لله ملائكة فى السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها، ورسمت مساكنها؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك؟ ومن يكون عن يسارك؟ وهل ترى أجسامهم النورانية تضيء لك فى الظلام، أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين يديك، وما خلفك؟ وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك، والعبارة التى تلقفتها عنهم، كيلا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك، وأدعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب، ووقفت على سر من أسرار الكتاب"(٦٢)(*).

---

(٦١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ١٢٩/٥ وما بعدها.

(*) واضح من هذا أن منهج الإمام فى فهم النصوص الشرعية سواء كانت آيات من كتاب الله ــ تعالى ــ أو حديثا لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنما يقوم على التزام النصوص بظواهرها. وتفويض العلم بما أشكل عليه منها إلى الله سبحانه وتعالى.
وبجانب هذا المنهج الذى نبه إليه بقوله فى النص:"وأنا على طريقة السلف فى وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله-تعالى- وصفاته وعالم الغيب". فإن الإمام قد يجد نفسه مضطرا إلى تأويل نص من النصوص إذا ما واجه مشكلة مع أعداء الإسلام ومعارضيه الذين لا يسلمون ولا يفهمون معنى"التفويض والتسليم" فيكون تأويله لبعض النصوص وسيلة لإلزام الخصم وإبطال اعتراضه... مع ملاحظة أن منهجه الأساسى الذى نبه إليه غير ذلك.

(٦٢) الأعمال الكاملة ١٤٦/٥ .

(*) كان الشيخ محمد عبده يضع فى اعتباره هجوم الفلسفة المادية على الإسلام. ومن هنا نستطيع أن نفهم كلامه عن الملائكة ــ عليهم السلام ــ وكيف أنه يرى أنهم مجرد أرواح أو قوى وأن تسميتها بالملائكة، وما جاء عنها من حديث ==

ولقد أحس محمد رشيد رضا الجرأة فى هذا التأويل لمفهوم الملائكة فأخذ يدافع عنه ويقول: إن هذا التأويل موجه لإقناع منكرى الملائكة، فقرب إليهم المفهوم بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم. وهو بهذا يحتج على الماديين ويقنعهم بصحة ماجاء به الوحى، وهو بمثل هذه الأساليب فى الإقناع بحقيقة الدين كان حجة الله فى العصر، حتى قال له أحد رجال القضاء الأذكياء: إنه (أى الأستاذ الإمام) بتفسير القرآن بالبيان الذى يقبله العقل ولا يأباه العلم قد قطع على الذين يظنون أنه اقترب الوقت الذى يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيوده وجهل رجاله وجمودهم(٦٣).

هذا ومن أمثلة استخدام الإمام محمد عبده للعقل وتحكيمه إياه أنه قد لجأ إلى التمثيل والتخييل فى سجود الملائكة لآدم ــ عليه السلام ــ.(٦٤).

وتأويل معصية آدم-عليه السلام-بطريقة التمثيل(٦٥). وتخريج كثير من القصص الوارد فى القرآن الكريم عن مدلولها الحقيقى التاريخى إلى مدلول تشريعى أو تأويل عقلى حتى يقبلها المنكرون ويصدق بها المكذبون(٦٦).

هذا ولقد كان الإمام محمد عبده مقتنعا اقتناعا تاما بأن الدين المملوء بالخرافات لا يستقيم والعقل المستنير إذ من المستحيل أن يجتمعا، ولهذا يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يشتمل على شىء من الخرافات ولا يمكن أن يتعارض مع العقل الرشيد، ومن ثم فإننا نجده يهاجم الخرافات الشائعة بين الجماهير عن الجن والسحر والحسد وكرامة الأولياء محاولا أن يفسرها بمفهومات تقترب من

== فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إنما هو من باب مخاطبة العقول بما تفهم.

وعلى كل حال فهذا رأى الشيخ محمد عبده قد يكون لنا تحفظ عليه رغم دوافعه التى تهدف إلى تقديم الإسلام بصورة معقولة لدى الفلاسفة المنكرين لغير المادة.

(٦٣) انظر: منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاته ص ٨٧ وما بعدها.

(٦٤) المرجع السابق ص٨٨ .

(٦٥) المرجع السابق ص٩١ .

(٦٦) المرجع السابق ص ١٠١ وما بعدها .

روح العلم[٦٧](*).

ونظرا للنزعة العقلية التى اتسم بها الإمام محمد عبده فإنه قد أخذ يفسر المعجزات مؤكدا أنها ليست من نوع المستحيل عقلا، إذ هى لا تخضع لقانون السببية، وهو ما لم يقم دليل على استحالته، وإن كان لها ناموس خاص بخوارق العادات يخلقه الله، من هنا نجده يقر بالمعجزة وبالسببية لكنها سببية خاصة[٦٨].

والإمام محمد عبده عندما دعا إلى استخدام العقل فى مجال استخراج الأحكام الاعتقادية وفهمها، ذهب إلى ضرورة الاقتصاد فى التأويل حيث قال: "ولا يتعسف طريق التأويل، فإن هذا حال شرحه طويل، فلا تدرى ماذا أراد بما قال، فربما ذهب اشتغالنا هباء منثورا، فالحق أن لا يهمل النظر، وأن يكون من التأويل على خطر، وهذه رتبة الراسخين فى العلم، الذين وقفوا على الحقائق بصفاء عقولهم، ثم يقبلون ما جاءهم من ربهم، مع عدم الاستطلاع لما هو دفين تحت حجب أستاره"[٦٩].

يقول الإمام محمد عبده أيضا: "إن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله بلا غلو فى التجريد (أى التنزيه المطلق وتعطيل الصفات) ولا دنو من التحديد(وهو مذهب المشبهة)[٧٠].

هذا ولقد كان للإمام موقف من أولئك الذين أسرفوا فى التأويل فلقد التمس العذر لهم، ولم يصفهم بالكفر تشجيعا على إعمال العقل فى فهم الدين ونصوصه وذلك شريطة أن يكونوا مؤمنين بالدين وأصوله.

---

(٦٧) انظر ذلك: بالتفصيل فى المرجع السابق ص١٠٥ وما بعدها.

(*) هذه من الأشياء التى خالف فيها الإمام محمد عبده صريح الكتاب وصحيح السنة، فإن الجن والسحر والحسد والكرامة من الأمور التى تقوم على إقرارها بشروطها عقيدة المؤمن الذى يستمد إيمانه وعقيدته من الكتاب والسنة... وإنكار هذه الحقائق التى ثبتت بالصريح القاطع من الكتاب والسنة أمر غاية فى الخطورة.

(٦٨) انظر ذلك: بالتفصيل فى تفسير المنار ٣٠٩/٧ .

(٦٩) حاشية على شرح الدوانى القسم الثانى ص ١٠٥ نقلا عن:إعادة بناء علم التوحيد ص٤٦.

(٧٠) رسالة التوحيد ص١٧٩ نقلا عن: إعادة بناء علم التوحيد ص٤٦ .

يقول الإمام محمد عبده فى هذا الصدد:"من اعتقد بالكتاب العزيز، وبما فيه من الشرائع العملية، وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى عليه فى ظاهر القول، وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ــ بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد، ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة فى التكليف ــ كان مؤمنا حقا، وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله، فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة، لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة، والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد باللّه ورسله واليوم الآخر، بلا قيد فى ذلك إلا باحترام ما جيء به على ألسنة الرسل"(٧١).

هذا ولقد اتصف الإمام بالتسامح ولم يكفر أحدا خالفه فى الرأى فنراه مثلا لم يكفر القائلين بقدم العالم مثلما فعل الغزالى وابن تيمية وإنما قال بخطأ رأيهم، ولعل سبب ذلك هو "اعتقاده أن هذه المسألة (مسالة الحدوث والقدم) تعد مسألة جدلية خاصة أن القائلين بالقدم قد حاولوا الدفاع عن رأيهم بذكر أكثر من آية من الآيات القرآنية(٧٢). ومنها ــ قوله تعالى ــ: **{ثم استوى إلى السماء وهى دخان}**(٧٣) وقوله ــ تعالى ــ: **{وكان عرشه على الماء}**(٧٤).

ويقول الإمام فى تعليقاته على العقائد العضدية حول هذا الموضوع: "واعلم أنى وإن كنت قد برهنت على حدوث العالم، وحققت الحق فيه، على حسب ما أدى إليه فكرى، ووقفنى عليه نظرى، فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا وأنكروا به ضروريا من الدين القويم، وإنما أقول إنهم أخطأوا فى نظرهم ولم يسددوا مقدمات أفكارهم"(٧٥).

وقال أيضا: "ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد فى الاعتقاد، ولم تجب عصمته فهو معرض للخطأ، ولكن خطأه عند اللّه

---

(٧١) المرجع السابق ص١٥٥ .
(٧٢) انظر: مقدمة كتاب الإسلام دين العلم والمدنية للدكتور عاطف العراقى ص ٢٨ .
(٧٣) من الآية (١١) من سورة فصلت .
(٧٤) من الآية (٧) من سورة هود ــ عليه السلام ــ.
(٧٥) حاشية الإمام محمد عبده على العقائد العضدية ص٦٠ .

واقع موقع القبول حيث كانت غايته من سيره، ومقصده من تمحيص نظره أن يصل إلى الحق ويدرك مستقر اليقين"(٧٦).

وإنه لمن الرائع حقا عند حديث الإمام محمد عبده عن أصول الإسلام فى كتابه "الإسلام دين العلم والمدنية" أن يجعل من أصوله "البعد عن التكفير".

وأود هنا أن أختم هذا الحديث بقول الإمام محمد عبده الذى يدل على التسامح وهو: "إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر"(٧٧).

دور الإمام محمد عبده فى توضيح قضايا الإسلام والرد على أعداء الإسلام الذين طعنوا فيه وبخاصة المستشرقين ومن جرى فى ركابهم:

لقد وهب الإمام الجليل محمد عبده حياته كلها فى الإصلاح والتجديد ورفض التبعية المطلقة للمذاهب والكتب المتأخرة، حيث إنها كانت سببا مباشرا فى ضعف الشخصية الإسلامية وقتل ملكاتها الإبداعية، ورأى أن سبب البلاء فى هذه التبعية هو الاعتقاد بالجبر. لذا كان له موقف إزاء أولئك الذين يتهمون المسلمين بالتخاذل والكسل والركون إلى الراحة. بناء على هذا الاعتقاد قام الإمام ببيان معنى الجبر ومعنى القضاء والقدر(*).

وقد تجلى هذا واضحا من خلال دفاعه عن الدين الإسلامى ممثلا فى ثلاثة مواقف :

---

(٧٦) المرجع السابق .

(٧٧) الإسلام دين العلم والمدنية ص ١١٩ .

(*) القضاء والقدر.

١- من العلماء من ذهب إلى أنهما بمعنى واحد. وأنهما علم اللّه بالأشياء أزلا وإيجادها فيما لا يزال.

٢- ومن العلماء من ذهب إلى التفرقة بين القضاء والقدر. فقال: إن القضاء يعنى علم اللّه ــ تعالى ــ بالأشياء وكتابتها أزلا، وأما القدر فهو إيجاد اللّه ــ تعالى ــ الأشياء شيئا فشيئا حسب قضائه السابق.

٣- ومنهم من عكس. فجعل معنى القضاء للقدر أو معنى القدر للقضاء.

الأول: رده على هانوتو فى أوائل عام ١٩٠٠م حيث نشر لهانوتو مقـــالا عن الإسلام بمناسبة سياسة فرنسا فى المستعمرات الإسلامية، تعرض فيه للمقارنـة بين المدنية النصرانية والإسلامية ووازن بينهما فى مسألتين:

ذات الله والقضاء والقدر فقال: إن اعتقاد النصارى فى التثليث وتصورهـم للإله الإنسان جعلهم يرفعون مرتبة الإنسان ويخولونه حـق القـرب مـن الـذات الإلهية. هذا فى حين أن العقيدة الإسلامية بدعوتها إلى التوحيد وتنزيه اللـــه عـن البشرية، حملت الإنسان على الضعف والوهن. والعقيدة المسيحية القائلـة بحريـة الإنسان وإرادته دفعته إلى العمل والجد، أما عقيدة المسلمين فى القضـاء والقـدر فحملتهم على الجمود والركود[٧٨].

وفى هذا الإطار يذكر الإمام تصور الإفرنج حول اعتقاد المسـلمين فيقـول حكاية عنهم: "إن المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر فى القوى الحربية والسياسية عـن سائر الأمم، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفـاق والخيانـة والتحـاقد والتباغض، وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمسـتقبلة، وغفلـوا عمـا يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثـم لا ينافسـون غيرهم فى فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصـر فـى إلحـاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى، رضـوا بكل عارض، واستعدوا لقبول كل حادث وركنوا إلى السكون فى كسور بيوتـهم ... هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار، وزعموا أن لا منشأ لـها إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الإلهية، وحكموا بـأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزا ولن يعيـدوا مجدا...[٧٩].

ولقد تولى الإمام الرد على هانوتو ومن سار على نهجه فى عدة مقـالات بين فيها فضل الإسلام وأن عقيدة التوحيد أسمى فكرة، وأن الإسلام لم يـدع إلـى

---

(٧٨) انظر: زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص٣٦٠ ، الإسلام والنصرانيـة مـع العلـم والمدنية ص ٦٣ وما بعدها.

(٧٩) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ٢/٢٦٠ وما بعدها.

الجبرية بالمعنى الذى فهمه هانوتو، وأن فى القرآن الكريم أربعا وستين آية تثبت حرية الإرادة.

رد الإمام على هانوتو:

فيما يلى سوف نستعرض رد الإمام بإيجاز:

يرى الإمام أن هانوتو ومن على شاكلته قد خلط عندما اعتقد أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين: بأن الإنسان مجبور محض فى جميع أفعاله. وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل.

وأكد الإمام أن ما شاع فى الإسلام من القول بالجبر، ليس هو الإسلام الصحيح، فالإسلام الصحيح يؤكد حرية الإرادة وينفى الجبر، وقد أكد القرآن الكريم على ذلك عندما عاب على أهل الجبر رأيهم.

يقول الإمام فى هذا الصدد: "لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وإسماعيلى(*) وزيدى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا

(*) غريب من الإمام أن يعد"الإسماعيلية" ضمن طوائف أو فرق المسلمين مع أهل السنة وغيرهم من الطوائف التى ترتبط إلى الإسلام بوشيجة متينة. ذلكم أن الإسماعيلية ــ بلا خلاف ــ قد انفلتوا عن الإسلام جملة وتفصيلا، وهم بجميع طوائفهم التى لا تكاد تحصى قد خرجوا عن الملة، بل إنهم كانوا حربا على الإسلام والمسلمين. وكان من أهدافهم الخبيثة القضاء على الإسلام وهدمه وتفريق المسلمين... وهذه حقيقة لا تخفى على الدارسين والباحثين ولا يجادل فيها أحد فكيف خفيت على الشيخ محمد عبده؟
إن طائفة منها الحشاشون والقرامطة وأمثالهم الذين نزعوا باب الكعبة الشريفة، وهدموا بئر زمزم، وقتلوا الآلاف من الحجاج وهم يطوفون بالكعبة طواف الإفاضة من حجهم، ثم طمروا بئر زمزم بجثث الحجاج، وانتزعوا الحجر الأسود ونقلوه إلى حاضرة ملكهم فى الإحساء ليبقى بيت الله – تعالى – بدون الحجر الأسود الذى يعتبر معلما من معالمه، ونسكا من نسك الحجيج ما يزيد على العشرين عاما.
نقول: أمثال هؤلاء ما كان ينبغى للإمام أن يعدهم من المسلمين.

اختياريا فى أعمالهم، ويسمى "بالكسب"(*) وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية والنواهى الربانية الداعية إلى كل خير، الهادية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى وبه تتم الحكمة والعدل(٨٠).

ومن خلال النص الآتى نجد الموضوعية وبيان الحقيقة وعدم المغالطة حيث إن الإمام لا ينكر وجود طائفة الجبرية لكن لم يعد لها أرباب من أواخر القرن الرابع الهجرى وليس هناك صلة بين الاعتقاد بالقضاء والقدر والاعتقاد بالجبر.

يقول الإمام: "نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ، وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته. ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة. وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة، ولم يبق لهم أثر(*) وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون"(٨١).

(*) الشيخ الإمام هنا يشير إلى مذهب الأشاعرة فهم – دون غيرهم – الذين رأوا "الكسب" وقالوا به مع ملاحظة أن الكسب عليه مآخذ كثيرة من الفرق الأخرى، بل من بعض الأشاعرة أنفسهم.
وأكثر ما يؤخذ على الكسب خفاؤه وعدم وضوح المراد منه، وتضارب آراء أئمة الأشاعرة حول ذلك. حتى ضرب به مثلا للخفاء. فقيل "أخفى من كسب الأشعرى".

(٨٠) تاريخ الأستاذ الإمام ٢/٢٦٠ وما بعدها.

(*) كلام الشيخ عن انقضاء الجبرية وانمحاء كل أثر لها. كلام غير دقيق، وغير مسلم.
أما أن الجبرية قد انقضى أربابها فقد يكون مسلما إذا اعتبرنا ذلك مرادا به انقضاء الفرقة كفرقة، والمذهب كمذهب له دعاته وأربابه والقائمون عليه، والمشايعون له، والمنافحون عنه فهذا الجانب قد انقضى بالنسبة للجبرية.
أما القول بأنه "لم يبق لهم أثر" فكلام غير صحيح. فالقائلون بالجبر والمتعللون به– كأفراد–موجودون فى كل زمان، ومنهم الكثير فى زماننا.

(٨١) المرجع السابق.

ثم يذكر الإمام أن القرآن الكريم قد عاب على أهل الجبر مسلكهم، وأثبت الكسب والاختيار فيما يقرب من أربع وستين آية.

يقول الإمام: "جاء القرآن الشريف وهو الكتاب المنزل بالإسلام، يعيب على أهل الجبر رأيهم، وينكر عليهم قولهم: **{لو شاء الله ما أشركنا ولا ءاباؤنا ولا حرمنا من شيء}**[٨٢] بقوله:**{كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون}**[٨٣](**) وأثبت الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية. وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فإنما جاء فى تقرير السنن الإلهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما فى آية **{ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة}**[٨٤] إلخ ونحوها[٨٥].

من هنا نرى أن الإمام استدل بالقرآن الكريم فى توجيه الإنسان إلى الحرية فى كثير من آياته التى تسند العمل للإنسان وتربط الجزاء بالعمل، كما أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ اتجهت أقواله وأفعاله إلى تأييد الحرية الإنسانية والمسئولية الخلقية.

يقول الإمام فى هذا الشأن: "وجاء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى عمله وقوله بما يؤيد ذلك، فكان العامل الذى لا يكل، والدائب الذى لا يمل،

---

(٨٢) من الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

(٨٣) من الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

(**) كلام غير دقيق.

فإن الله-تعالى-لم ينكر على المشركين قولهم: **{لو شاء الله ما أشركنا ولا ءاباؤنا ولا حرمنا من شيء}** فإن كلامهم هذا صحيح ومسلم حيث إن الله-تعالى-لو شاء ألا يشركوا ما أشركوا. . فكلامهم حق.. لكن الذى أنكره الله ــ تعالى ــ عليهم؛ إنما هو احتجاجهم واعتذارهم عن إشراكهم بمشيئة الله ــ تعالى ــ حيث أشركوا بالله ــ سبحانه ــ ثم احتجوا لإشراكهم بأن الله ــ تعالى ــ شاء ذلك.

والسؤال الموجه إليهم ومن أدراهم أن الله-تعالى-قد قدر عليهم ذلك لكى ينفذوه ويشركوا؟

(٨٤) من الآية (١١٨) من سورة هود ــ عليه السلام ــ.

(٨٥) الإسلام دين العلم والمدنية صـ٨٩.

والساهر الذى لاينام والجاد الذى لم يبلغ شأوه أحد من الأنام، هل نقل عنه أنه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر فى إتمام دعوته قائلا: الذى كفل لى النصو يكفينى التعب، وضمان الله لإعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب؛ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطا، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزما واحتياطا"[٨٦].

وقد سار على نفس الدرب أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والتابعون فى الاقتداء به فى السعى والدأب والكسب.

يقول الإمام: "جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعدهم من السلف الأولين وكانوا أكمل الناس إيمانا بإحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار، وكانوا أسوة فى السعى ومثلا فى الدأب والكسب حتى كان من آثارهم فى نشر الإسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله"[٨٧]. لقد قدم الإمام الكثير من الأدلة على الحرية فى مقابل القائلين بالجبر، ولعل أهم دليل هو الدليل القائم على شرعية التكليف، لأن شرعية التكليف تقتضى القول بالحرية والمسئولية عن التكليف، لأنه فى غياب الحرية، لا يكون حينئذ للتكليف معنى، ولا للثواب والعقاب مغزى.

يقول الإمام: "ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكليفه به. إذ لا يعقل أن يدعى شخص إلى ما لا يقدر عليه، وأن يكلف بما لا أثر لإرادته فيه"[٨٨].

وإذا كان القول بالحرية يؤكده النقل والعقل فكذلك يؤكده دليل الحس والوجدان السليم.

يقول الإمام عن دليل الحس والعقل السليم: "كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته، ثم يصدرها بقدرة ما فيه، ويعد إنكار شئ من ذلك مساويا لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة

---

(٨٦) المرجع السابق.

(٨٧) المرجع السابق.

(٨٨) تفسير سورة العصر صـ ٤٥.

العقل. كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة، متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس"[٨٩].

أما بالنسبة لدليل الوجدان السليم فيقول الإمام: "فاختيار العبد فى أفعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره إلا من جهل نفسه"[٩٠].

يقول الإمام فى نهاية حديثه عن القضاء والقدر: "الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة. ويبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائر النمور. هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلى عن نضرة الحياة. كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذى يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء. كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرضه الله عليه من ذلك؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية.

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته[٩١] فى قول الحق **{الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ? فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم}**[٩٢].

هذا وقد قام الإمام بالرد على اعتراضات المعترضين على القول بالحرية ومن أهم هذه الاعتراضات ما يلى:

---

(٨٩) رسالة التوحيد صـ٤٧.
(٩٠) الإسلام دين العلم والمدنية صـ٨٩.
(٩١) تاريخ الأستاذ الإمام ٢/٢٦٣.
(٩٢) الآيتان (١٧٣،١٧٤) من سورة آل عمران .

١ – الاعتراض:

إن دعوى الاعتقاد بكسب العبد أفعاله تؤدى إلى الإشراك بالله وهو الظلم العظيم .

الـــرد :

لقد ذهب بعض المنكرين للحرية إلى الاحتجاج بقول الله ــ سبحانه وتعالى ــ : **{والله خلقكم وما تعملون}**[٩٣] إلى أن الله ــ تعالى ــ هو خالق أفعال الإنسان زاعمين أن القول والتصريح بحرية الإنسان يعنى رفع إرادة الإنسان إلى مرتبة الإرادة الإلهية، وهذا يؤدى إلى الشرك بالله.

ولقد قام الإمام بالرد على ذلك ببيان معنى الشرك وبيان أن قدرة الله ــ عزوجل ــ فوق قدرة البشر حيث ذكر أن: الإشراك هو اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة، وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه، فالإنسان الذى يقترف إثم الشرك، ليس هو الإنسان الذى يعول على قواه الخاصة، ويعد نفسه مسيطرا على أفعاله، بل المشرك هو ذلك الذى يعتقد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الطبيعية الظاهرة[٩٤].

والقول بكسب الإنسان بإرادته وقدرته يؤكد أن: "قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده، وأن لا شئ سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما يبلغه كسبه.

وقد جاءت الشريعة لتقرير ذلك، وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه، وتكليفه بأن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده، بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل، ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك، وهذا

---

(٩٣) الآية (٩٦) من سورة الصافات.

(٩٤) انظر: رسالة التوحيد صـ٤٩.

الذى قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم"[٩٥].

٢- الاعتراض:

القول بالحرية ينافى الإيمان بالقضاء والقدر.

الـــــرد :

هنا يناقش الإمام قضية القضاء والقدر وعلاقتها بالحرية، فيذهب إلـــى أن حرية الإنسان ليست مطلقة بل هى متناهية عند الإنسان، وإذا رجع الإنســـان إلـــى تجاربه فى الحياة وما قد يقع له من أحداث وخطوب يدرك حينئذ "أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل إليه سلطته. فـــإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجـــب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وإرادته خشع وخضع، ورد الأمر إليه فيمـا لقى، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى. فالمؤمن كما يشهد بالدليل والعيـان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات يشهد بالبداهـــة أنـــه فـــى أعمالـــه الاختيارية ــ عقلية كانت أو جسمانية ــ قائم بتصريف ماوهب الله له من المـدارك والقوى فيما خلقت لأجله"[٩٦].

ويؤكد الإمام فى حديثه إلى أن الدليل قد يصل إلى حد البداهـــة علـــى أن "جميع الأشياء راجعة إلى الله ــ تعالى ــ، ووجود الممكنات إنما هو نسبتها إليـــه، ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه. . ومثل ذلك يقـــال فـــى عظيم قدرة الله، وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا فهو أمر نشـــاهده كل يوم، ندبر شيئا ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان ونتنـــاول عملا ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه، كل ذلك لا نزاع فيه، شمول علم الله ــ تعـالى ــ لما كان ولما يكون قام عليه الدليل ولا شبهة فيه عند الملبين"[٩٧].

فالإنسان - بهذا يكون مضطرا من جهة اعتقاده أن الله خالق كـــل شـــىء

---

(٩٥) رسالة التوحيد صـــ٤٩.

(٩٦) رسالة التوحيد صـــ٤٧ وما بعدها.

(٩٧) تفسير سورة العصر صـــ٤٥ وما بعدها، تفسير سورة الفاتحة صـــ٩٦ وما بعدها.

على النحو الذى يعلمه، وهذا هو معنى القضاء، ثم لا بد من جهة أخرى أن يقر بنسبة عمله إليه وهذا أمر بدهى عند أصحاب النظر السليم[٩٨].

ويربط الإمام بين مصطلح القضاء والسببية أو العلية فيقول: "الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع، بل ترشد إليه الفطرة، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب، إلا ما هو حاضر لديه، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها، وأن لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم"[٩٩] فكل ظاهرة من ظواهر الكون لها علة سابقة على حدوثها، والعلل ترتبط فى سلسلة هى سلسلة العلل "وإرادة الإنسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة، وليست الإرادة إلا أثرا من آثار الإدراك، والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله، فضلا عن عاقل، وأن مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة إنما هى بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع هذه الأشياء على وفق حكمته، وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزء له خصوصا فى العالم الإنسانى"[١٠٠].

وإذا كان القضاء بهذا المعنى فليس لإنسان كائنا من كان أن ينكر تأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الإرادات البشرية، ولا يستطيع إنسان ما أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنها الله فى خلقه[١٠١].

من هنا يذعن الناس للقضاء والقدر، فالله ــ تعالى ــ هو المدبر لهم والمصرف لحوادثهم، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضعف قوى، ولا انهدم مجد، ولا تقوض سلطان[١٠٢].

---

(٩٨) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام ٢٦٦/٢ وما بعدها نقلا عن: إعادة بناء علم التوحيد صـ٨٩.

(٩٩) المرجع السابق ٢٦٢/٢.

(١٠٠) المرجع السابق.

(١٠١) انظر: المرجع السابق.

(١٠٢) تاريخ الأستاذ الإمام ٢٦٣/٢.

فالقضاء والقدر يعنى سبق العلم الإلهى فعلمه ــ تعالى ــ: "محيط بما يقع من الإنسان بإرادته، وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه، وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر، والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار، فلا شيء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب، وكون ما فى العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع، والواقع لا يتبدل"(١٠٣).

وهكذا يرى الإمام محمد عبده أن العلم الإلهى السابق لا يحول دون أن يكون الإنسان حرا فى أعماله بوجه ما، فلا تكون الإحاطة بما سيقع مانعة من وقوع الفعل أو باعثة عليه، فليس هناك تناقض بين سبق العلم الإلهى، وصدور الفعل الإنسانى بكسب الإنسان وإرادته، بل إن هناك انسجاما تاما بين فعل الإنسان وفعل الله ــ تعالى ــ .

يقول الإمام فى هذا الصدد: "وقع الصلح بين الطائفتين العظيمتين فى أن الأفعال هل هى لله خاصة، أو بقدرة العبيد فإنه لا تخالف بينهما فى الحقيقة، فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل"(١٠٤).

ولقد أبرز الإمام محمد عبده العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات، ولم يجد حرجا فى تقرير علاقة السببية على الاعتقاد والإيمان الدينى العميق بوجود الخالق الفاعل فى هذا الكون ــ سبحانه وتعالى ــ، لأنه ــ عزوجل ــ هو الذى خلق الكون، وخلق القوانين التى لا سبيل ولا طريق إلى خرقها وتبديلها. وفى المقابل نجد الإمام الغزالى وقد تحرج من تقرير علاقة السببية، حتى قال إن الثلج ليس هو السبب فى برودة الماء، والنار ليست هى السبب فى احتراق القطن، والسيف الذى جز العنق ليس هو السبب فى القتل!.

إلا أن الإمام محمد عبده لم يتحرج فى تقرير هذه العلاقة الضرورية باعتبارها إحدى سنن الكون وقوانينه، وقوى المواد الطبيعية وخصائصها، وفعل الظواهر المادية التى لا تتخلف عن العقل إلا إذا عاقها سبب وقانون جديد.

ويجلى الإمام هذه القضية عند تناوله إياها فيقول إن "القول بنفى الرابطة

---

(١٠٣) رسالة التوحيد ص ٥٠ وما بعدها.

(١٠٤) تاريخ الأستاذ الإمام ٢/٢٥ نقلا عن: إعادة بناء علم التوحيد صـ٩٠.

بين الأسباب ومسبباتها جدير بأهل دين ورد فى كتابه أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحول عن مكانك، فيتحول الجبل، يليق بأهل دين يعد الصلاة وحدها، إذا أخلص المصلى فيها، كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب، وقلب نظام العالم العنصرى، وليس هذا الدين هو دين الإسلام، دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه: **{وقل اعملوا فسيرى الله عملكم}**[١٠٥]. **{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل}**[١٠٦]. **{سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا}**[١٠٧]. وأمثالها... وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه، قبل أن يكفر بعقله. إن لله فى الأمم والأكوان سننا لا تتبدل... وهى التى تسمى شرائع، أو نواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين إن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة فى الاجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبنى عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر، أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه"[١٠٨].

من هنا نجد أن الإمام محمد عبده يذهب إلى وجود سنن ونواميس للخلق دون أن يكون فى ذلك أى إنكار لقدرة الله ورقابته، وهذه السنن لا تقتصر على مستوى من مستويات الخلق، فهى فى الطبيعة والصخور، والطقس مثلها فى الإنسان والحيوان والنبات.

يقول الإمام محمد عبده: "وفى الأرض آيات للموقنين، فى جرمها ومادتها وشكلها وعوالمها المختلفة، من جماد ونبات وحيوان، فلكل منها نظام عجيب، وسنن إلهية مطردة فى تكوينها، وتوالد ما يتوالد من أحيائها وغير ذلك، حتى ولو

---

(١٠٥) من الآية (١٠٥) من سورة التوبة.
(١٠٦) من الآية (٦٠) من سورة الأنفال.
(١٠٧) الآية (٦٢) من سورة الأحزاب .
(١٠٨) الأعمال الكاملة ٣/٥٠٢، ٢٨٤.

دققت النظر فى أنواع الجمادات من الصخور المختلفة الأنواع، والجواهر المتعددة الخواص والألوان، لشاهدت من النظام فيها، ومن أنواع المنافع فى اختلافها وتنوعها ما تعلم به علم اليقين، أنها ترجع فى ذلك إلى إبداع إله حكيم، رءوف رحيم لا شريك له فى الخلق والتدبير"(١٠٩).

ولقد تجلت هذه السنن فى الجماعات يقول الإمام: "وللبشر سنن خاصة بهم فى حياتهم الاجتماعية، عليها يسيرون، وفيها يتقلبون، فقوتهم وضعفهم، وغناهم وفقرهم، وعزهم وذلهم، وسيادتهم وعبوديتهم، وحياتهم وموتهم، كل ذلك غاية لا تباع سنن الله، وأولئك الذين يعيشون وفقا لسنن الله، هم الذين لهم الغلبة على غيرهم من الأمم"(١١٠).

ويقرر الإمام أن السنن الاجتماعية جاء بها القرآن الكريم، فليس من المعقول إذن التنكر لها، فإن قوة أية أمة من الأمم تتحدد بمدى قربها أو بعدها عن هذه السنن"(١١١).

لقد أراد الإمام محمد عبده من خلال رده على هانوتو أن يبين أن ما يعانيه العالم الإسلامى من تخلف فى المدنية والعلم لا يرجع إلى الإسلام فى الحقيقة، وإنما مرجعه إلى خلل قد طرأ على فهمهم لبعض أصوله الاعتقادية فهما خاطئا، فأدى بهم ذلك إلى هذا الضعف والتخلف، وذلك لأن أصول الإسلام(*) فى صورتها

---

(١٠٩) تفسير المنار ٥٨/٢.

(١١٠) المرجع السابق ٥٤/٩، ٥٥.

(١١١) تاريخ الأستاذ الإمام ٣٢٣/٢، ٣٢٤، الإسلام دين العلم والمدنية صـ١١٩.

(*) جاء فى كتاب الإسلام دين العلم والمدنية للإمام محمد عبده صـ١١٨ وما بعدها أن أصول الإسلام ثمانية:

١ - " النظر العقلى لتحصيل الإيمان." هذا كلام فيه خلاف كبير. والقضية ترجع إلى تحصيل معرفة الله ــ سبحانه وتعالى ــ هل هى بالعقل أم بالفطرة. ذهب سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ــ رضوان الله عليهم ــ إلى أن معرفة الله ــ تعالى ــ فطرية. وأنها لا تحتاج إلى إعمال عقل ولا إجهاد فكر. وذهب المتكلمون ــ جملة ــ إلى أن معرفة الله ــ تعالى ــ نظرية تكتسب بالعقل. وبعد اتفاقهم على هذا اختلفوا فى أول ما ==

== يوصل إلى تلك المعرفة. وهو المشهور عندهم بـ"أول واجب على المسلم" فمنهم من ذهب إلى أن أول الواجبات النظر العقلى فى معرفة الله ــ سبحانه ــ، ومنهم من ذهب إلى أن أول واجب هو الشك فى وجود الله ــ سبحانه ــ. ومنهم من ذهب إلى أن أول واجب هو القصد إلى النظر وليس النظر... إلخ.

٢- "تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض". كلام فيه نظر من جوانب كثيرة أهمها:

أ - أن التعارض بين الشرع والعقل أمر غير وارد. ذلك لأن منزل الشرع هو خالق العقل. وإذا حدث تعارض فسببه إما خلل فى العقل، أو افتراء وخطأ فى نقل الشرع. أما إذا كان الشرع صريحا والعقل صحيحا فلا يكون ثمة تعارض. . . والعقل الصحيح يعرف منزلته ومستواه. ومن هنا فإنه يترك عالم الغيب لله ــ تعالى ــ ويسلم بما يجىء به رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فينتفى التعارض الموهوم.

ب- أنه لو فرض وحدث نوع من التعارض، فإنه يجب أن يكون الشرع هو المقدم وليس العقل لأن الشرع حاكم على العقل وليس العكس. ولأن العقل قد يخطئ، أما الشرع الذى أنزله الله ــ تعالى ــ فلا يخطئ لأن منزله هو الله ــ سبحانه ــ والله ــ تعالى ــ منزه عن الخطأ...

٣ - "البعد عن التكفير..".

٤ - "الاعتبار بسنن الله فى الخلق..".

٥ - "قلب السلطة الدينية..".

٦ - "حماية الدعوة لمنع الفتن..".

٧ - "مودة المخالفين فى العقيدة.." أمر خطير. وله قواعده وضوابطه. فلا يقال بإطلاق. فإن ذلك خطأ محض والأمر يخضع لقواعد الولاء للمؤمنين والبراء من غيرهم. وقد تناول القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة هذه القضية، فوضعت ضوابطها، وبينت تفاصيلها... وتحديدا فى سورة النساء الآيات (٨٨-٩١) يقول الحق ــ تبارك وتعالى ــ: {فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ?ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا ==

الصحيحة تدعو إلى التمدن والتقدم، وكان لها أثر كبير فى المسلمين الأوائل الذين انطلقوا فى الآفاق ينشرون الإيمان الصحيح، ويشجعون على الاشتغال بالعلوم الأدبية والعقلية والكونية، وينشئون دور الكتب والمدارس ليصلوا فى النهاية إلى الاكتشافات العلمية متخطين فى ذلك مدنية اليونان إلى ابتداع علوم جديدة، وكشوف علمية، وقد كان نتاجهم العلمى الغزير نقطة انطلاق لإخراج أوروبا من ثباتها

== نصيرا * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا * ستجدون ءاخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا}. وكذلك فى سورة الممتحنة الآيتان (٨-٩) يقول الله ــ عز وجل ــ: { لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ? إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم أولئك هم الظالمون} .

والحاصل أن مخالفينا فى العقيدة ليسوا على حال واحدة، فمنهم من حاربنا وأخرجنا من ديارنا واستولى عليها، فهل نمنحهم المودة والولاء؟

إن هذا أمر لا يقول به عاقل. . ومنهم من يضمرون العداء، ويعينون علينا، وينفرون الأعداء ضدنا، فهل نمنحهم المودة؟ هل نمنح المودة لإسرائيلى صهيونى؟ هل نمنحها لمن يعين إسرائيل على سفك دمائنا وسلب أرضنا؟

إن إطلاق الحكم بهذا الشكل خطأ، وخطأ كبير.

٨ - "الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة. . ."

وعن نتائج هذه الأصول ورد عن أحد الفلاسفة الغربيين. . "أن المحبة التى نشأت بين عمر بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى، بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع". انظر: الإسلام دين العلم والمدنية صـ١٣١.

العميق فى ظلام الجهل وذلك حينما انتقل إليهم التراث العلمى الضخم للمسلمين"[١١٢].

ويقول الأستاذ محمد رشيد رضا إن الغرض الذى رمى إليه الأستاذ فى الرد على مسيو هانوتو هو: "تنبيه المسلمين وإرشادهم إلى النظر فى عيوبهم والبحث عن الأسباب التى أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم، وعمت ملوكهم وحكامهم وسوقتهم ودهماءهم، والجمع بين أسباب الفساد وبيان المخرج منها"[١١٣].

الثانى: رد الإمام محمد عبده على فرح انطون حيث نشر انطون مقالا فى مجلة الجامعة عن ابن رشد: "قرر فيه أن المسيحية كانت أوسع صدرا وأكثر تسامحا للعلم والفلسفة من الإسلام"[١١٤].

وتولى الإمام محمد عبده الرد عليه فى عدة مقالات(*) أثبت فيها سعة صدر المسلمين للفلاسفة وأهل العلم والأديان الأخرى مما لم يكن له نظير فى أى دين آخر.

هذا وسنذكر هنا الشبه التى ذكرها فرح انطون وهى:

١-أن المسلمين قد تسامحوا مع أهل النظر منهم ولم يتسامحوا مع مثلهم من أرباب الأديان الأخرى.

٢- أن من الطوائف الإسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية.

٣- أن طبيعة الدين الإسلامى تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحى تيسر لأهله التسامح معه.

٤- أن إيناع ثمر المدنية الحديثة إنما تمتع به الأوربيون ببركة التسامح الدينى المسيحى.

---

(١١٢) انظر: الإسلام دين العلم والمدنيةصـ١١٥ وما بعدها.

(١١٣) تاريخ الأستاذ الإمام ٧٩٩/١.

(١١٤) زعماء الإصلاح لأحمد أمين صـ٣٦٠، تاريخ الأستاذ الإمام ٨٠٥/١.

(*) جمعت هذه المقالات فى كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية.

obeikandl.com

الرد على الشبهة الأولى:

يستند الإمام فى رده على هذه الشبهة التى يدعى فيها فرح انطون أن المسلمين تسامحوا مع أهل النظر منهم ولم يتسامحوا مع مثلهم من أرباب الأديان الأخرى بما ورد عن المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين ويذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا مكانة كبيرة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم ما لم يبلغه غيرهم.

وهنا يورد الإمام قولا للمستر درابر أحد المؤرخين ومن كبار الفلاسفة الأمريكيين حيث قال: "إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام. بل فوضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى أعلى المناصب فى الدولة، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه هو (يوحنا بن ماسويه) الشهير وقال فى موضع آخر: "كانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأى وسعة الفكر من الخلفاء إلى النسطوريين تارة وإلى اليهود تارة أخرى. لم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذى نشأ عليه، بل كان ينظر إلى مكانته من العلم والمعرفة. قال الخليفة العباسى الأكبر المأمون: الحكماء هم صفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده، لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة، فهم ضياء العالم، وهم واضعو قوانينه، ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية"(١١٥).

ومن الحكماء الذين نالوا الحظوة من الخلفاء على سبيل المثال جيورجيس بن بختيشوع الجند يسابورى طبيب المنصور، ويوحنا بن ماسويه النصرانى ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة سواء منها الطبية أو غيرها، وممن علا قدره فى زمن المأمون يوحنا البطريق وكان مترجما للكتب فى كل أنواع الفنون، وفى أيام المتوكل اشتهر حنين بن إسحاق النصرانى وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره. وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة أيام خلافة الراضى متى بن يونس المنطقى النصرانى النسطورى وغيرهم كثير.

---

(١١٥) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية صـ١٥ وما بعدها.

وفى النهاية يقول الإمام محمد عبده: "ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الإسلام، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام"(١١٦).

يقول الإمام محمد عبده بعد ذلك: " أظن أنه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء الجامعة أن الإسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد ألا وهو ميزان احترام العلماء للعلم. ويسهل على أن ألتمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث، قيل إنها حدثت للدين وما حدثت له. بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء، أو جهالة عمياء، أو تأريث بعض السفهاء"(١١٧).

الرد على الشبهة الثانية:

الحقيقة التى لا تنكر أنه لم يقع خلاف بين طوائف المسلمين بسبب الاعتقاد سواء أكانوا من المتكلمين ممثلين فى الأشاعرة أم المعتزلة أم من الفلاسفة الإسلاميين. وما وقع من الحروب المعروفة بحروب الخوارج والقرامطة وغيرهم لم تكن من أجل الاعتقاد ولكن من أجل السياسية.

يقول الإمام محمد عبده فى هذا الصدد: "لم يسمع فى تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والأشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما، ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة ــ كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طوائف وقع الحرب بينها وبين غيرها. نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج، كما وقع من القرامطة وغيرهم، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف فى العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية فى طريقة حكم الأمة، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة،

---

(١١٦) المرجع السابق صـ١٩ وما بعدها.
(١١٧) المرجع السابق صـ٢٠.

وهى بالسياسة أشبه، بل هى أصل السياسة".(١١٨) (*).

أما بخصوص ما وقع من حروب بين إيران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين فإنه قد يكون من أجل العقيدة. أما الحروب الداخلية التى نتجت بعد استقرار الخلافة للعباسيين فإن منشأها طمع الحكام وفساد أهوائهم.

يقول الإمام محمد عبده: "نعم وقعت حروب الأزمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة وهى ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين، ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروبا سياسية، ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف فى العقيدة بين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين.

وأما الحروب الداخلية التى حدثت بعد استقرار الخلافة فى بنى العباس وأضعفت الأمة وفرقت الكلمة فهى حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم، وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم. ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم، وارتخاء حبل التمسك به فى أيديهم، وأكبر داء دخل على المسلمين فى هممهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم"(١١٩).

وردا على فرح انطون نذكر ما وقع فى القسطنطينية من سفك الدماء بين الأرثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين.

ويذكر الإمام محمد عبده أيضا "بحادثة برتلمى سنتهلير التى سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت وأخذوهم من بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا وأطفالا؟ بماذا أذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التى اسود لها لباس

---

(١١٨) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص١٣.

(*) كلام فيه نظر. فإن الحروب التى قام بها القرامطة وأمثالهم من الكافرين بالإسلام الناقمين على المسلمين. كانت فى أصلها وما تفرع عنها هى حرب عقدية سياسية. وكانت العقيدة من أسبابها. لأن القرامطة وأمثالهم ما قاموا بحروبهم إلا للقضاء على الإسلام وإن كانوا يزعمون أنهم مسلمون. . وهذا أمر فرغ منه الباحثون، ولم يعد محل خلاف.

(١١٩) المرجع السابق صـ١٣ وما بعدها.

الإنسانية وشقيت بها البشرية؟ هل يمكن لأحد أن يروى حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف فى العقيدة مهما عظم الاختلاف"(١٢٠).

وإن ننسى فلا ننسى ما يجرى الآن (فى أواخر القرن العشرين) فى إيرلندا بين الطوائف النصرانية من القتل وسفك الدماء.

الرد على الشبهة الثالثة:

التى يدعى فيها فرح انطون أن طبيعة الدين الإسلامى تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحى تيسر لأهله التسامح معه.

نقول: أين التسامح الذى يتحدث عنه فرح انطون مع وجود محاكم التفتيش ومراقبة المطبوعات؟! لقد "أنشئت المراقبة على المطبوعات، وتحتم على كل مؤلف وعلى كل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذى عين للمراقبة وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئا لم يعرض على المراقب، أو نشر شيء لم يأذن المراقب بنشره، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومئ إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية كما أنه قد وضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة"(١٢١).

أين التسامح؟ إذا ما عرفنا أنه "ما من عقيدة ظهرت فى المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق إلا وقد سالت لها الدماء فلتراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما، كان ذلك فى طبيعة الدين: أن من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك لا يستحق الحياة"(١٢٢).

أين التسامح الذى يتحدث عنه انطون؟ وقد كانت الأولاد تعاقب بلا جريرة نظير مخالفة آبائهم للعقيدة الكاثوليكية، كما كان تركهم أحياء ضربا من الإحسان.

---

(١٢٠) المرجع السابق صـ١٤ وما بعدها.
(١٢١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية صـ٣٣.
(١٢٢) المرجع السابق.

فقد جاء فى كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية أن "البابا أنوثان الثالث قال عند الكلام عن مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية "لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة وترك الحياة لهم من وإحسان" فلم يقتصر الجزاء على الجاحدين ولكنه تعداه إلى أولادهم، وعد ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضربا من الإحسان إليهم، لأنهم لا حق لهم فى أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم"(١٢٣).

أين التسامح مع ما قاله دى رومنيس: "إن قوس قزح ليست قوسا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد بل هى من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء، فجلب إلى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت فى النار، وقيل فى علة الحكم: إنه أراد الصلح بين كنيستى روما وإنجلترا، وأى ذنب أعظم من هذا الصلح؟ إنه بلا ريب أضخم بكثير من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء(١٢٤).

يقول الإمام محمد عبده: "هل يصدق القارئ أن ما قصده "كريستوف كولمب" ــ "كريستوفر كولمبس" ــ من السفر فى المحيط الأطلنطى لعله يكتشف أرضا جديدة كان من الأمور التى اهتمت لها الكنيسة، وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزستوم وأوغستين وجيروم وغريغوار... وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة، ولم ينتج هذا العرض شيئا ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رفض الكنيسة كما هو معلوم قال كريستوف كولمب "إن الذى أوحى إليه هذا القصد النبيل هى كتب ابن رشد" من هنا تفهم لم قامت الكنيسة وقعدت؟"(١٢٥).

بعد عرض هذه النماذج التى إن دلت على شىء فإنما تدل على مدى الاضطهاد والقهر وهما بعيدان كل البعد عن التسامح الذى يدعيه انطون!!!

---

(١٢٣) المرجع السابق صـ٣١.

(١٢٤) المرجع السابق ص٣٣.

(١٢٥) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية صـ٣٧ وما بعدها.

يقول الإمام "ربما يقول قائل: إن هذا الذى ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ولكن قد قام فى المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين إلى أصل الكتب المقدسة، ويبيحون للعامة أن ينظروا فيها ويفهموها، وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول، ومن عهد ظهور الإصلاح والرجوع إلى أصول الدين بزغت شمس العلم بالغرب، وبسط للعلم بساط التسامح وذلك لا يمكن أن يكون إلا جريا مع طبيعة الدين"(١٢٦).

ثم يذكر الإمام محمد عبده رأى البروتستانت أنفسهم فى تاريخ الإصلاح فيقول: "لا أذكر فى الجواب عن ذلك إلا ما ذكر البروتستانت أنفسهم فى تاريخ الإصلاح: استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة وقد أمر كلفان بإحراق "سيرفيت" فى جنيف لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحى كان قد دخل عليه شىء من الابتداع قبل مجمع نيقية، وكان يقول إن روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها. فكان جزاؤه على هذا أن شوى على النار حتى مات... كان لوثر أشد الناس إنكارا على من ينظر فى فلسفة أرسطو، وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الألقاب التى لا بأس بها إذا صدرت من أهل الغيرة على الدين فى طريق الدفاع عنه!! وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوثر، لكنه لم يكن أحسن ظنا به ولا أوسع صدرا لمن يطلع على شىء من كتبه. وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف "المعلم الأول" فتأمل الفرق بين الفريقين!!"(١٢٧).

ولعل من نافلة القول أن نختم هذا الرد بما ذكره الإمام محمد عبده وهو بصدد بيان التسامح فى الإسلام فقد قال: "كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة فى أصول مذهبه، ومع ذلك فهو من مشايخ الإمام البخارى صاحب الصحيح، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل منزلة عنده، حتى قال يوما وهو خارج من بين يديه "رميت لكل الناس حبا فلقطوا إلا إياك يا عمرو بن عبيد، فانظر كيف كان لإمام من أئمة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء

---

(١٢٦) المرجع السابق ص٤٠.

(١٢٧) المرجع السابق صـ٤١ وما بعدها.

المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأسا؟"[١٢٨].

ويقول الإمام عن سماحة الإسلام إن: "الإمام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل "لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ولا باطنا أشبه بظاهر منه"[١٢٩].

أما بالنسبة للشبهة الرابعة وهى أن إيناع ثمر المدنية الحديثة إنما تمتع به الأوروبيون ببركة التسامح الدينى المسيحى فيكفى ردا عليها ما ورد كرد على الشبهة الثالثة[١٣٠].

وقد رد الإمام محمد عبده إجمالا على ما ادعاه فرح انطون من أن المسيحية أكثر تسامحا مع العلم من الإسلام بقوله إن: "الإسلام قاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج، فأية سعة أكمل من هذه السعة؟. .

اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه على إنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل[*]، وبقى فى النقل طريقان: طريقة التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى اللّه فى علمه، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته

---

(١٢٨) المرجع السابق صـ٩٢.

(١٢٩) المرجع السابق صـ١٣٤.

(١٣٠) لمزيد من التفصيل انظر: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية.

(*) سبق أن بينا موقفنا من القضيتين: تعارض العقل والنقل، وتقديم العقل على النقل فليرجع إلى ذلك ص٥٠.

العقل"[١٣١].

الثالث: رده على رينان الذى ادعى أن الإسلام عاجز عن التطور وعن قبول أى عنصر من عناصر التقدم والمدنية.

لقد رد الإمام محمد عبده على رينان وبرهن على أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية، دين له أثر إيجابى فى تغيير الواقع الإسلامى إلى الأفضل مشيرا فى ذلك إلى عدة مسائل:

١- بيان صلة الإسلام بالعلم.
٢- رفض التصوف السلبى.
٣- الانفتاح على الثقافات الأجنبية.

فبالنسبة للمسألة الأولى بين أن دعوة الإسلام إلى القراءة فى بداية نزول الوحى على الرسول ــ صلى اللّه عليه وسلم ــ فى سورة العلق وكونها صدرت بقوله ــ تعالى ــ: **{اقرأ}** يدل على أهمية العلم بالنسبة للإنسان وهو أمر يتعلق بفطرة الإنسان وهى حاجته الحيوية إلى العلم والمعرفة قدر الاستطاعة، والطريق إلى ذلك هو القراءة، وبذلك أضحت القراءة عبادة؛ لأنها قراءة تعرف الإنسان بربه ــ عز وجل ــ حينما يكون موضوعها الكون بأسره.

لذلك نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى العلم وتحصيله فى كثير من الآيات ويثنى على العلماء ثناء حسنا.

كما جاءت السنة النبوية المطهرة تؤكد ما أمرنا به القرآن الكريم. ويستدل الإمام محمد عبده بقول الرسول ــ صلى اللّه عليه وسلم ــ: "اطلبوا العلم ولو فى الصين"[١٣٢].

---

(١٣١) الإسلام دين العلم والمدنية صـ١١٨.

(١٣٢) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لأبى الحسن على الكنانى ٢٥٨/١ حققه وراجع أصوله وعلق عليه عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد اللّه محمد الصديق. ويذكر الكنانى أنه رواه ابن عدى والعقيلى من حديث أنس وفيه أبو عاتكة طريف بن سليمان منكر الحديث وقال ابن حبان حديث باطل لا أصل له. وأخرج البيهقى فى الشعب الحديث من طريقه وقال: متن مشهور ==

ويعلق عليه ويقول: "إن كان فى سند لفظه إلى النبى ــ صلى اللّه عليه وسلم ــ مقال فسند معناه متواتر، فإنه سند القرآن نفسه، فإن اللّه يفضل العلم وأهل العلم وبدون قيد ولا تخصيص(*)، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين، ولو لم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى ــ صلى اللّه عليه وسلم ــ"(١٣٣).

ويقول الإمام فى تأكيد حث السنة النبوية المطهرة على طلب العلم: أما رأينا ذلك الأمى "يقصد الرسول ــ صلى اللّه عليه وسلم ــ" بعد هجرته إلى المدينة يسمح بإطلاق أسرى مكة القادرين على تعليم اثنى عشر فتى من المدينة فن الكتابة والقراءة، ذلك الفن الذى يجهله، إن دينا يعلم أن مداد العلماء يعدل دماء الشهداء لا يمكن أن يتهم بالجهل ومناوأة العلم(١٣٤).

== وإسناده ضعيف. وأخرجه ابن عبد البر من طريق يعقوب بن إسحاق العسقلانى، لكن يعقوب رمى بالكذب ووثقه مسلم بن القاسم وحكى توثيقه عن بعضهم.

وذكره ابن الصلاح فى علوم الحديث المشهور غير الصحيح. وفى تلخيص الواهيات للذهبي: روى عن على وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وجابر وأنس وأبى سعيد وبعض طرقه أوهى من بعض وبعضها صالح.

(*) فى ذلك نظر. فالإسلام لا يحض على العلم ــ بإطلاق ــ بل بشرط أن يكون نافعا، أما العلم الضار فالإسلام يرفضه وينهى عنه ومن ذلك تعلم السحر وما أشبه من وسائل الخرافات والشعبذة. واللّه ــ تعالى ــ يقول: { ويتعلمون مايضرهم ولاينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق } ويدخل فى معنى قوله ــ سبحانه ــ: (لمن اشتراه) "لمن تعلمه".

وهناك علوم كثيرة ضارة، مثل نشر العلوم التى تؤدى إلى الفتك بالبشر وبالكائنات. كعلوم إنتاج القنابل الجرثومية. التى يحاول العالم كله الآن رفضها وتجريم القائمين بها.

ويلاحظ ــ كذلك - أن العلوم المطلوبة بينها تفاوت، ففى المقدمة تأتى العلوم الدينية الشرعية، ثم العلوم المدنية، وكل من القسمين له تفصيلات كثيرة.

(١٣٣) الإسلام دين العلم والمدنية صـ١٣٠.

(١٣٤) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام ٢/٤٢٨-٤٣٠ نقلا عن: إعادة بناء علم التوحيد صـ١٠٠.

إن كمال الدين كما يقول الإمام محمد عبده: "هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم، ويسيح به فى الأرض ويصعد به إلى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله، أو يكشف به سرا من أسراره فى خليفته، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء، وتبلغ من التمتع بها ما تريد. فلما وقف الدين، وقعد طلاب اليقين، وقف العلم وسكنت ريحه"(١٣٥).

والإسلام عندما طالب الإنسان بالعلم وحثه على تحصيله لم يقتصر على العلوم الدينية فقط، بل شمل أيضا العلوم الدنيوية يؤكد الإمام محمد عبده على ذلك قائلا: "المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان، وتلقيه من أية شفة وأى لسان"(١٣٦).

وإذا كان الإسلام قد دعا إلى طلب العلم وتحصيله من أى مصدر كان حتى ولو كان هذا المصدر أجنبيا عنا، أو مخالفا لنا فى العقيدة، فلا ضير إذا فى التماسه من هذه المصادر الغريبة مادام علما نافعا، دون مبالاة بالعقيدة التى يعتقدها ما دام فى هذا نفع للمسلمين.

ويستدل الإمام على ذلك بقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ: "الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها، فهو أحق بها"(١٣٧).

وبقوله ــ تعالى ــ: **{يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب}**(١٣٨).

وغاية العلم وهدفه فى الإسلام الإيمان الراسخ بالله ــ عز وجل ــ ولذلك

---

(١٣٥) الإسلام دين العلم والمدنية صـ١٥٠.

(١٣٦) المرجع السابق صـ١٢٩.

(١٣٧) سنن ابن ماجة ١٣٩٥/٢ كتاب الزهد باب الحكمة حققه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقى.

(١٣٨) الآية (٢٦٩) من سورة البقرة.

obeikandl.com

"يأخذ الدين بيد العلم، ليتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان، فيدرك العقل مبلغ قوته، ويعرف حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين، ويكشف مامكنه فيه من أسرار العالمين، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا، وقفل راجعا، وأخذ أخذ الراسخين فى العلم"(١٣٩) "هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب)... فالعلم الصحيح مقوم الوجدان، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم. والدين الكامل علم وذوق، عقل وقلب، برهان وإذعان، فكر ووجدان، فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه، وهيهات أن يقوم على الأخرى"(١٤٠).

وإذا كانت غاية الإيمان شكر المنعم على ما أنعم فكيف يستطيع الإنسان المسلم شكر خالقه؟

يجيب عن هذا التساؤل الإمام بقوله: "إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره إلى سره، ويقف على قوانينه وشرائعه، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه. كيف يشكر الله إذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وفى سنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجله، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله.؟"(١٤١).

وهكذا يتسع معنى العبادة ليشمل الكشف العلمى عن أسرار الكون، بحيث لا يقتصر هذا الكشف على مجرد العلم بتلك الأسرار بل يتجاوز ذلك إلى عمل فى مجال التطبيق شريطة أن يكون محكوما بالقيم الإسلامية وبعيدا عن الانحراف.

يقول الإمام: "لما كان المسلمون علماء، كانت لهم عينان: عين تنظر إلى الدنيا والأخرى تنظر إلى الآخرة"(١٤٢).

ولقد بين الإمام مدى العلاقة الوثيقة بين الإسلام والعلم، فذكر أن التاريخ الإسلامى شاهد على أن الإسلام سار مع العلم جنبا إلى جنب فما كاد يمضى على

---

(١٣٩) الإسلام دين العلم والمدنية صـ١٦١.
(١٤٠) المرجع السابق صـ١٦٢.
(١٤١) المرجع السابق صـ١٢٩.
(١٤٢) المرجع السابق صـ١٥٠.

هذا الدين قرنان من الزمان، حتى نبغ المسلمون فى جميع فروع المعرفة البشرية. وقد اعترف بهذا علماء الغرب. ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر ما أورده الإمام فى كتابه الإسلام دين العلم والمدنية أن "ديلامبر" قال فى تاريخ علم الهيئة: "إذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد فى العرب عددا كبيرا غير محصور" وأما فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحدا عند اليونانيين، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب، ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم. وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية يستعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية، وهى من أصدق الأدلة فى الإيصال إلى المجهولات..."(١٤٣).

ويؤكد الإمام أن العلم مطلوب لذاته، تسعى إليه النفس البشرية بناء على فطرتها وهى حب المعرفة وارتياد المجهول، والنفس البشرية تجد فى سعيها نحو المعرفة سعادة لا تعادلها سعادة أخرى.

يقول الإمام: "لا شيء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه، وإن كان فى أول أمره مطلوبا لغيره مثل العلم، تطلب العلم أولا لحاجتك إليه فى تقويم معيشة، أو ترفيه حال أو دفاع عن نفس وملة، ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفسه، فتصير اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد لنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها، وعلة ذلك ظاهرة فإن العلم مسرح نظر العقل، والعقل قوة من أفضل القوى الإنسانية، بل هى أفضلها على الحقيقة، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة، ولست فى حاجة إلى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس. فالحيوان يعرفها بله الإنسان، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الإنسان ألذ من كشف المجهول، وإحراز المعقول وقد سمح الإسلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال. أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح فى مملكة العلم ليمتع عقله كما يسيح فى بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله"(١٤٤).

---

(١٤٣) المرجع السابق صـ١٣٦ وما بعدها

(١٤٤) الإسلام دين العلم والمدنية صـ١٣٠

أما بالنسبة للمسألة الثانية وهى رفض التصوف السلبى

فانطلاقا من تركيز الإمام على أهمية الربط بين الدنيا والآخرة والتمتع بالدنيا، نراه يرفض ولا يرتضى لنفسه المسلك الذى يسير عليه أولئك المتصوفة الذين يهملون الدنيا على حساب الآخرة ويدعون إلى التواكل لا التوكل.

والمقصود برفض التصوف "أى التصوف السلبى(*)" ذلك التصوف الذى يجعل الناس بمعزل عن الدنيا وما يجرى فيها من أحداث، هذا بالإضافة إلى ما يشيعه هذا التصوف من تخلف فى المجتمعات حيث ينشر مفاهيم خاطئة عن التوكل والقضاء والقدر والزهد فى الدنيا واحتقارها(*). وقد وصف الإمام هذا التصوف

(*) قد ذهب إلى هذه الفكرة من قبل الإمام كثيرون منهم "مسكويه" حيث ذم مسلك أولئك المتصوفة الذين يعيشون فى المفاوز والجبال وبالتالى لا تظهر فيهم الفضائل الخلقية فقد قال: "إن الإنسان من بين جميع الحيوان، لا يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته، ولا بد له من معاونة قوم كثيرى العدد حتى يتمم به حياته طيبة، ويجرى أمره على السداد، ولهذا قال الحكماء إن "الإنسان مدنى بالطبع" أى هو محتاج إلى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الإنسانية، فكل إنسان بالطبع وبالضرورة يحتاج إلى غيره، فهو لذلك مضطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة، ومحبتهم المحبة الصادقة، لأنهم يكملون ذاته ويتممون إنسانيته، وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك، فإذا كان ذلك بالطبع وبالضرورة فكيف يؤثر الإنسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلى، ويتعاطى ما يرى الفضيلة فى غيره، فإذا القوم الذين رأوا الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم، إما بملازمة المغارات فى الجبال، وإما ببناء الصوامع فى المفاوز، وإما بالسياحة فى البلدان، لا يحصل لهم شىء من الفضائل الإنسانية التى عددناها، وذلك أن من لم يخالط الناس ولم يساكنهم فى المدن لاتظهر فيه العفة ولا الجدة ولا العدالة، بل تصير قواه وملكاته التى ركبت فيه باطلة، لأنها لاتتوجه لا إلى خير ولا إلى شر، فإذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بمنزلة الجمادات والموتى من الناس". تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق صـ٤٩ قدم له الشيخ حسن تميم، الفوز الأصغر صـ٥٧، المقدمة لابن خلدون صـ٣٩، آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى صـ١١٧.

(*) لقد شاعت هذه الفكرة فى التراث وكان للتصوف السلبى دور فى تنميتها، فابن الوزير روج لهذه الفكرة فى كتابه "يتيمة الدهر" صـ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ==

بأنه تصوف يدعو إلى الكسل والقعود والدعة، لأنه أشاع مفاهيم خاطئة عن التوكل فألبسوه ثوب الجمود وعدم السعى وترك العمل وعملوا على ترسيخ هذه المفاهيم فى أذهان العامة وفهموا خطأ قول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: "لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا"(١٤٥) فتركوا أسباب السعى فى المعاش والكسب منتظرين أن يرزقهم الله كما يرزق الطير بناء على توكلهم على الله ــ تعالى ــ.

لذلك هاجم الإمام محمد عبده هذا المفهوم للتوكل والزهد والاعتزال عن الدنيا وهجرها ورفض العمل، كما رفض فهم الحديث على هذا النحو ومن ثم قال: "لو صح ما يذهبون إليه من حديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ: "لرزقكم كما يرزق الطير تلبث فى أعشاشها وتفتح أفواهها خماصا وتمسى بطانا"(١٤٦).

إن الطير عندما تسير لتحصيل معاشها إنما تسير على الغريزة التى أودعها الله فيها، حيث يلهمها معرفة الأماكن التى فيها أقواتها، كما يلهمها السير إلى تلك الأماكن لتحصل على أقواتها، فهى تعمل بإرادتها تبعا للشعور الذى أودعه الله فيها، وبهذا المعنى ينبغى أن يفسر التوكل. العقل للإنسان بمثابة الغريزة عند الطيور، ولسنا أناسا حقا إلا إذا عشنا على وفاق مع العقل. وبهذا المعنى ينبغى على الإنسان استعمال ملكاته العقلية استعمالا مشروعا، باحثا عن أفضل الوسائل لغايات أفعاله، متخذا ما تيسر له من أسباب قدر طاقته، وبمقدار ما وهبه الله، ثم

== وكذلك أبوبكر الطرطوشى "انظر: سراج الملوك صـ١٣، ٣٣، ٨١"، ونجد ذلك أيضا عند الإمام الغزالى الذى رغب فى الزهد عن الدنيا والإعراض عنها. "انظر: التبر المسبوك فى نصيحة الملوك للغزالى صـ٢٤- ٣٥ " نقلا عن: إعادة بناء علم التوحيد عند الأستاذ الإمام محمد عبده للدكتور محمد صالح صـ٩٧.

(١٤٥) سنن الترمذى ٥٧٣/٤ وما بعدها كتاب الزهد باب فى التوكل على الله تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر.

(١٤٦) انظر: رائد الفكر المصرى صـ٢٥، تفسير سورة العصر صـ٨٨ وما بعدها.

بعد ذلك يترك نتائج فعله لله ــ تعالى ــ، واثقا بربه[١٤٧].

ولقد ربط هؤلاء الخاملون من مدعى التصوف بين التوكل بمعناه السلبى والإيمان بالقضاء والقدر إيمانا يدعو إلى الاستسلام والقعود عن العمل ولقد أشار الإمام إلى هذا حيث قال: "فإلى جانب المسلمين الأتقياء المخلصين فى تقواهم، انتشرت طوائف وشراذم من ضعفاء النفوس وأهل البطالة، الذين يرتاحون إلى تبرير عجزهم، ووهن عزائمهم بالاستناد إلى نظرية سهلة وعقيدة متواكلة، بل لم يخل الأمر من وجود علماء فى الأزهر(*) يبثون فى نفوس الشبان أمثال هذه الأوهام..."[١٤٨] فإذا لاح لواحد من الناس نور إلهى يرشده إلى طريق العلم، يأتيه معارض يقول له: إن الحالة الحاضرة هى ما قدرها الله، لا حيلة لنا فيها، فالمرء متوكل على الله مسير بحسب قدرته، فعلينا بتسليم أمورنا لله ــ تعالى ــ والتوكل عليه، وبذلك ينطفئ النور الذى لاح بذهنه. . وهذا ما يبرأ منه الدين، بل إن ما للدين من عدو أضر من أمثال هذه الاعتقادات[١٤٩].

ولذلك نجد الإمام محمد عبده يؤكد على ضرورة تصحيح هذه المفاهيم الدينية التى انتشرت وكان لها نتائج فى غاية السوء والضرر على الفرد والمجتمع قائلا: نرجو من الراسخين من علماء العصر أن يبذلوا جهدهم فى تخليص هذه العقيدة من بعض ماطرأ عليها من لواحق البدع، وأن يذكروا العامة بسنن السلف الصالح والتقاليد الإسلامية الصحيحة، وأن ينشروا بينهم أقوال أئمة الإسلام أمثال الغزالى من أن التوكل والركون إلى القضاء طلبه منا الشرع فى العمل، لا فى البطالة والكسل، وأن الله ما أمرنا بإهمال فروضنا، ونبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه[١٥٠].

---

(١٤٧) انظر: رائد الفكرى المصرى للدكتور عثمان أمين صـ١٢٥ وما بعدها.

(*) لا يعيب الأزهر وجود فئة قليلة من أمثال هؤلاء ففى كل فئة شواذ والشاذ يثبت القاعدة ولاينفيها.

(١٤٨) المرجع السابق ص ١٢٦.

(١٤٩) انظر: تفسير سورة العصر صـ٨٥ وما بعدها، رائد الفكر المصرى صـ١٢٦ ومابعدها.

(١٥٠) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام ٢/٢٦٦.

ومع أن الإمام محمد عبده قد هاجم انحراف بعض المتصوفة. إلا أن هـذا لا يعنى أنه رفض التصوف من أساسه لا لشيء إلا، لأنه قد تربى فى شبابه تربيـة صوفية ولا ننكر ما كان من أثر محمود للشيخ درويش وجمال الدين الأفغانى مـن تصوف الإمام.

فالإمام لا ينكر ما للتصوف من أثر فى تهذيب النفس، وتربيـة الأخـلاق وترقية العقل والوجدان وتمكين الشعور الدينى فى نفوس الناس. فهو عندما يـهاجم التصوف إنما يهاجم هذا النوع من التصوف الذى انحرف عن مسـاره الصحيـح، فأسرف فى الزهد حتى اعتزل أصحابه الدنيا واحتقروهـا، وقعـدوا عـن العمـل والسعى فيها. أى التصوف السلبى الذى كان له دور كبـير فـى نشـر المفاسـد والخرافات والبدع، التى راجت على أيدى أصحاب الطرق الصوفية المنحرفين عـن جادة الصواب، فعطلوا الأسباب عن مسبباتها، وادعوا الكرامة والولاية[١٥١].

يقول الإمام فى هذا ناقدا التصوف المنحرف: "إن مقاصد الصوفية الحسـنة انقلبت، ولم يبق من رسومهم الظاهرة إلا أصوات وحركات يسمونها ذكرا، يتـبرأ منها كل صوفى (حقيقى) وكذلك تعظيم القبور تعظيما دينيا مع الاعتقاد بـأن لـهم سلطة غيبية تعلو الأسباب التى ارتبطت بها المسببات بحكمة اللّه ــ تعالى ــ، وبها يدبرون الكون ويتـصرفون فيه كما يشاءون، وأنهم قد تكفلـوا بقضـاء حوائـج مريديهم والمستغيثين بهم أينما كانوا، وهذا الاعتقاد هو عين اتخاذ الأنـداد، وهـو مخالف لكتاب اللّه وسنة رسوله ــ صلى اللّه عليه وسلم ــ وسـيرة الخلـف مـن الصحابة، وأئمة التابعين والمجتهدين.. وهؤلاء الصوفية يزعمون أن هنـاك فرقـا بين الشريعة وبين الحقيقة فلا تثريب عليهم، وقالوا: فى المنكر إنـه مـن أهـل الشريعة فلا التفات إليه، كأنهم يرون أن اللّه ــ تعالى ــ أنزل للناس دينين، وأنـه يحاسبهم بوجهين ويعاملهم معاملتين!!، نعم جاء هذا فى كلام بعض الصوفية ذكـر الحقيقة والشريعة، ومرادهم أن فى كلام اللّه ورسوله ما يعلو على أفهام العامة، بما يشير إليه من الحكم والمعارف التى لا يعرفها إلا الراسخون فى العلـم، فحسـب العامة من هذا الوقوف عند ظاهره، ومن آتاه اللّه بسطة فى العلم ففهم منـه شـيئا

---

(١٥١) انظر: إعادة بناء علم التوحيد عند الأستاذ الإمام محمد عبده صـ٩٨ وما بعدها.

أعلى مما تصل إليه أفهام العامة، فذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء ممن يجتهد ويجد للتزود من العلم باللّه وبسنته فى خلقه، فهذا يسمونه علم الحقيقة لا سواه، وليس فيه شيء يخالف الشريعة(١٥٢).

مع أن للتصوف قيمة معنوية كبرى فى نفس الإمام محمد عبده ومع إيمانه بأن للصوفية أذواقا خاصة وعلما وجدانيا خاصا وأنه قد حدث له شيء من ذلك فى أحد الأوقات كما هو واضح من كلام تلميذه الثقة محمد رشيد رضا، إلا أنه كان يرى وجوب كتمان كل ما يحصل للمرء من ثمرات مجاهداته، ولعل هذا يفسر لنا لماذا كان فى الصوفية نكرة لا تعرف، ولماذا كانت مكانته فى التصوف مجهولة حتى عند أصدقائه وتلاميذه.

أما بالنسبة للمسألة الثالثة وهى الانفتاح على الثقافات الأجنبية

فكلنا يعلم أن علم الكلام مهمته إثبات العقائد الدينية على أسس عقلية بإيراد الحجج ودفع الشبه. ولقد قام المتكلمون بالدفاع عن العقائد ضد التيارات العديدة والمذاهب المخالفة للإسلام، واستعانوا فى ذلك بكل المصادر سواء أكانت دينية أم فلسفية، وقد كان لحركة الترجمة واطلاع المتكلمين على الكتب المترجمة والثقافات الأجنبية أثر فى تطور هذا العلم، كما كان للمعتزلة دور كبير فى الدفاع عن الدين والرد على المخالفين باستخدام الطرق العقلية والبراهين النظرية، حتى إنهم درسوا الفلسفة كى يستطيعوا الرد على أصحاب الديانات والنحل المختلفة(١٥٣).

غير أن هذا لم يدم طويلا حيث حصر علماء الكلام أنفسهم فى العصور المتأخرة فى دائرة ضيقة، وهى دائرة العلوم الدينية فى إطارها المتزمت، وعزفوا عن الثقافات الأجنبية مما أظهر العلوم الأزهرية آنذاك بمظهر بعيد عن مواكبة التقدم ومسايرة العصر، أمام المنجزات الحضارية الحديثة، ولا شك أن ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى عجز أدواته الدفاعية فى مواجهة الخصوم المسلحين بالعلم والفلسفة فى إطارها الجديد.

---

(١٥٢) انظر: تفسير المنار ٢/٧٦.

(١٥٣) انظر: كتاب "علم الكلام نشأته-تطوره ــ موقف العلماء منه قديما وحديثا" للباحثة.

من هذا المنطلق أكد الإمام محمد عبده على ضرورة الاهتمام بالعلوم العقلية فى مجال علم الكلام كالمنطق الذى كان له دور فى تطور هذا العلم عند أسلافنا القدماء، بما قدمه لعلم الكلام وسائر العلوم الأخرى من طرق للوصول إلى اليقين، وتصحيح الفكر وعصمته من الخطأ، والاستدلال على العقائد والدفاع عنها، إذ لا شك فى أن المنطق وسيلة يستعان بها للرد على المخالفين.

يقول الإمام محمد عبده إن: "العلوم الكلامية إنما هى أحكام لتأييد القواعد الدينية بالأدلة العقلية القطعية حتى يحق لممارس تلك العلوم أن يقتبس نور تلك المطالب من تلك البراهين، ويقنع بذلك الطالبين ويردع المنكرين..."(١٥٤).

ويذكر الإمام موقف أولئك المعارضين لدراسة المنطق(*) من رجال الدين الذين يصفهم بالمتزمتين فيقول: "ويا عجبا إذا لم نصرف الفكر فى تقويم البراهين وتسديدها وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها، ففى أى شيء نصرفه فإنه إن غاب عنا رشادنا، وغاب عنا سدادنا فهل بشيء سوى الدليل نعرفه"(١٥٥).

يقول الإمام: "إن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الأفكار غثها من السمين، وتبين كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب بعد البيان، وأى مقدمة يصح أن تؤخذ فى البيان وأيها يجب أن يقذف ويطرح. فهذا علم حقيق

---

(١٥٤) تاريخ الأستاذ الإمام ٣٨/٢.

(*) تباينت الرؤى حول علم المنطق ما بين مؤيد ومعارض، فعارضه كثيرون معارضة شديدة كابن الصلاح والنواوى وابن تيمية، والنوبختى فى كتابه "الرد على أهل المنطق". ولقد ذهب بعض المفكرين كابن خلدون إلى إمكان الاستغناء عنه، لأنه يعوق الفكر السليم. وعلى الجانب الأخر أيده ابن حزم والغزالى إلا أن الغزالى نظرا للحملات الشرسة التى واجهت علم المنطق أخفى اسم المنطق من كتبه اتقاء لضيق أهل السنة والجماعة حيث جعل أسماء كتبه "معيار العلم" و"محك النظر" و"القسطاس المستقيم" وعرض له فى مقدمة كتابه "المستصفى" ومقدمة "مقاصد الفلاسفة" والأمر الذى نميل إليه إباحة استخدام علم المنطق متى كان المشتغل به متمكنا من الكتاب والسنة. انظر: أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل صـ٤١٤ وما بعدها.

(١٥٥) تاريخ الأستاذ الإمام ٣٩/٢.

بأن يتخذ سلما لجميع العلوم"[١٥٦].

هذا ولقد أكد الإمام كلامه السابق وعضده للدفاع عن العلوم العقلية بأن كثيرا من العلماء كالغزالى وفخر الدين الرازى وغيرهما يرى أن هذه العلوم من فروض الكفايات للحاجة الشديدة إليها فى الدفاع عن الدين.

والإمام محمد عبده وإن كان قد دعا إلى تعلم العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة، فإنه أيضا يدعو وبقوة إلى تعلم علوم العصر، لأنها من لوازم العصر إذ عن طريقها يستطيع المسلم أن يواجه واقعه ويتحدى أعداءه بنفس أدواتهم ويدعم دينه، فلا طريق ولا ملجأ ولا مخلص للمسلمين من غفوتهم إلا بمزيد من العلم.

يقول الإمام فى هذا الصدد: "وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هذه النيران (أى نيران العدوان الأوروبى والغزو الثقافى) دون أن يكون عندنا ما يماثلها، إن لم نقل ما يزيد عليها، فلا بد أن تؤتى البيوت من أبوابها، وتطلب المسببات من أسبابها، ولا بد من البحث عن وجود الاكتساب من وجه الصواب والاستفادة بنور المعرفة"[١٥٧].

وبالرغم من أن الإمام قد دعا إلى الانفتاح على علوم أوروبا إلا أنه مع ذلك نهى عن النقل والتقليد الأعمى، ولقد كانت دعوته دعوة انفتاح الناقد المستبصر لا المقلد الأعمى، وذلك حتى لا تضيع الهوية الإسلامية العربية وتضمحل الأخلاق.

موقف الإمام محمد عبده من تيار التغريب(*):

لقد هاجم الإمام بقوة تيار التغريب الرامى إلى تقليد الغرب حيث قال: إن أرباب الأفكار منا الذين يرومون أن تكون بلادنا كبلاد أوروبا ــ وهى هى ــ لاينجحون فى مقاصدهم، ويضرون أنفسهم بذهاب جهودهم أدراج الرياح، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح، فلا يمر زمن قريب إلا وقد بطل المشروع ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان.

---

(١٥٦) المرجع السابق.

(١٥٧) انظر: المرجع السابق ١٢٣/٢ وما بعدها.

(*) لا شك أن تيار التغريب ودعاته يعتبر أثرا من الآثار السلبية للاستشراق.

إن الذين يتخيلون أن نقل أفكار الغرب وعاداته إلى بلادهم سيصل بالبلاد بعد زمن وجيز إلى درجة من المدنية تماثل مدنية الغرب، لهم على خطأ كبير، إذ إنهم فى حقيقة الأمر يبدأون بما يجب أن ينتهوا إليه ويظهرنا على ذلك تاريخ الدول الأوروبية التى لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد عناء شديد وتضحيات جسام وبعد أن صهرت بوتقة الزمن عقليتها وساقتها ضرورات الحياة إلى يقظة وعيها فتطور فكرها(١٥٨).

آثار الإمام محمد عبده فى الفكر الإسلامى المعاصر:

بان مما تقدم أن للشيخ الإمام محمد عبده آثارا واضحة فى الفكر الإسلامى من أهمها مايلى:-

أولا: إعلاؤه شأن العقل فى مقابلة النص. بمعنى أنه إذا تعارض المعطى العقلى مع صريح النص الشرعى، قدم الشيخ المعطيات العقلية على صريح النص الشرعى.

يقول الإمام محمد عبده: "فإذا جزم العقل بشيء وورد فى النقل خلافه فإن الحكم العقلى القاطع يكون قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولابد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغى طلبه بالتأويل"(١٥٩).

ثانيا: اعتماده التأويل للنص الشرعى وذلك إعمالا للخصيصة الأولى التى سبق الإشارة إليها وهى اعتماده العقل، وتقديمه على الشرع.

والتأويل عند الشيخ محمد عبده أنواع. منها ما وافق السابقين عليه من المعتزلة ومتأخرى الأشاعرة. وذلك كتأويله اليد والوجه والعين والاستواء. فما ذهب إليه الشيخ من تأويل هذه النصوص هو مسبوق فيه. قد سبق إليه المعتزلة وبعض الأشاعرة وغيرهم ممن تابعهم. ومن الأمثلة على ذلك تأويله اليد بمعنى القدرة أو النعمة والعين بالإحاطة والشمول ... إلخ.

ولكن الشيخ لم يقف عند حدود ما سبق إليه المعتزلة من تأويل، بل تخطى

---

(١٥٨) انظر: المرجع السابق ١٢٢/٢ وما بعدها

(١٥٩) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ١٢٩/٥ ومابعدها.

ذلك إلى مجالات فى التأويل جعلته ينتقل من العدوة الدنيا التى تمثلت فى المعتزلة وبعض الأشاعرة إلى العدوة القصوى التى سبقه إليها المتفلسفة بأنواعهم.

والذى وصل إليه الشيخ فى هذا المجال الأخير منه ما قد ينظر إليه البعض على أنه مخرج عن حظيرة الإسلام. وذلك مثل: تأويله "الملائكة" ــ عليهم السلام ــ على أنهم قوى أو أرواح لا ذاتية لها..

١- تأويله الطير الأبابيل فى سورة الفيل من قوله ــ سبحانه ــ: **{وأرسل عليهم طيرا أبابيل ? ترميهم بحجارة من سجيل ?** فجعلهم كعصف مأكول**}**[١٦٠].

حيث أنكر الشيخ محمد عبده الواقعة نفسها، ثم أولها على أن المراد بالطير الأبابيل التى جعلت الناس كالعصف المأكول. إنما هى نوع أو أنواع من جراثيم الأمراض انتشر فى ذلك المكان ويغلب أن تكون جراثيم المرض المعروف بالجدرى[١٦١].

٢- تأويله الملائكة بأنهم مجرد قوى أو أرواح. والقول بأن الملائكة قوى يؤدى إلى تجريد الملائكة من كونهم موجودات قائمة بذواتها، لها من الصفات ما يؤمن به كافة المسلمين المؤمنين على ما ورد عنهم فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وهذا هو الذى دعا تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا إلى أن يلتمس للشيخ الأعذار فيما ذهب إليه فى حق الملائكة، مما يكاد يكون إنكارا لما هو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا فى هذا الإطار: "إن غرض الأستاذ الإمام من هذا التأويل الذى عبر عنه بالإيماء وبالإشارة إقناع منكرى الملائكة بوجودهم بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم، وقد اهتدى به كثيرون، وضل به آخرون فأنكروه عليه .."[١٦٢].

---

(١٦٠) الآيات (٣-٥) من سورة الفيل.

(١٦١) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ١٢٠.

(١٦٢) انظر: حاشية تفسير المنار ٢٧/١ نقلا عن: منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاته ص ٨٧.

٣- تأويله نزول المسيح ــ عليه السلام ــ آخر الزمان على أن المراد بـه زيادة الفتن وشيوع المفاسد. وللشيخ فى هذه المسألة موقفان.

الأول: إنكار القول بنزول المسيح ــ عليه السلام ــ بناء على الزعم بـأن نـزول المسيح إنما هو ثابت بالسنة فقط. وليس بالكتاب. وأن ما جاء فيه من أحاديث إنما هى أحاديث آحاد، والشيخ على مذهب الاعتزال بأن أحاديث الآحـاد لا يؤخذ بها فى الأمور العقدية. وهنا يتفق الشيخ مع المعتزلـة الذيـن وقفـوا بالقضية عند حد الإنكار. لكن الشيخ زاد على ذلك موقفا آخر ــ وهـو مـن باب التنزل مع الخصم ــ حيث ذهب إلى أنه على فرض صحة الأحـاديث. وأنها متواترة المعنى، فإن المراد بنزول المسيح إنما هو زيادة الفتن وشـيوع الفساد.

ثالثا: دعوته إلى الانفتاح على الثقافات الأجنبية بشرط المحافظـة علـى الهويـة الإسلامية العربية. وقد ذهب إلى ذلك الكثيرون. لكن الذى تميز به الشيخ هنا هو اهتمامه الشديد، مع التركيز على بث هذا الاتجاه لدى تلامذته.

رابعا: أن الإمام محمدا عبده ترك وراءه جيلا من تلامذته الذين درسوا على يديـه وتأثروا به، وتمثلوا منهجه الإصلاحى فى حياتهم، فسـاروا علـى دربـه، وانتهجوا نهجه، وكان لهم أثر لا ينكر فى شأن الإسلام والمسلمين.

obeikandl.com

ثبت بأهم المراجع

القرآن الكريم

كتب التفسير

كتب السنة

المعاجم

١-الإسلام دين العلم والمدنية للإمام محمد عبده. دراسة الدكتور عاطف العراقى. سينا للنشر.

٢- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للإمام محمد عبده. طبعة محمد على صبيح بدون تاريخ.

٣- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده تحقيق الدكتور محمد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

٤- الإمام محمد عبده للدكتور سعيد مراد. الأنجلو المصرية.

٥- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى. مطبعة السعادة. الطبعة الأولى.

٦- المجددون فى الإسلام لعبد المتعال الصعيدى. مكتبة الآداب طبعة ١٩٦٦م.

٧- الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى. مكتبة وهبة. الطبعة الثانية عشر ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٨- الفوز الأصغر لمسكويه. مطبعة السعادة ١٣٢٥هـ.

٩- أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل. دار النهضة العربية.

١٠- إعادة بناء علم التوحيد عند الأستاذ الإمام محمد عبده للدكتور محمد صالح. دار قباء طبعة ١٩٩٨م.

١١- آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى قدم له وعلق عليه الدكتور ألبير نصرى نادر. دار المشرق بيروت الطبعة السادسة.

١٢- تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده لمحمد رشيد رضا. دار المنار الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ-١٩٣١م.

١٣- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه قدم له الشيخ حسن تميم. منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان الطبعة الثانية.

١٤- رائد الفكر المصرى للدكتور عثمان أمين. الأنجلو المصرية الطبعة الثانية ١٩٦٥م.

١٥- رسالة التوحيد للإمام محمد عبده حققها وعلق عليها محى الدين عبد الحميد. طبعة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

١٦- زعماء الإصلاح لأحمد أمين. النهضة المصرية الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.

١٧- عبقرى الإصلاح والتعليم الأستاذ محمد عبده للعقاد. سلسلة أعلام العرب. وزارة الثقافة والإرشاد القومى.

١٨- فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلى. مؤسسة قرطبة السلفية للطباعة والنشر.

١٩- محمد عبده لمصطفى عبد الرازق. طبعة دار المعارف.

٢٠- المقدمة لابن خلدون. طبعة دار الشعب.

٢١- منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاتة. مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٤م.

obeikandl.com